هدية مجلة الأزهر

محمد

صلى الله عليه وسلم

رسول الله

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

فضيلة الشيخ

محمد الصادق إبراهيم عرجون

عميد كلية أصول الدين الأسبق

٢٢

شوال ١٤٣٨هـ

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾

الأحزاب : ٢١

محمد رسول الله ﷺ

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الجزء الثاني والعشرون

تأليف:
فضيلة الشيخ / محمد الصادق إبراهيم عرجون
عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩هـ - ١٩٣١م

تَنزل النّصر مَع آيات السَّمَاء

كان رسـول الله ﷺ بعد أن استنفد طاقته البشرية في الأخذ بكل سـبب في إعداد أصحابه إعداداً نفسـياً لملاقاة أعدائهم الذيـن يفوقونهم عـدداً وعدّة في حـرب مُسْـحِتَة لا تبقي ولا تـذر، بعـد أن عبأهم أحسـن تعبئـة، وصفهم للقتـال، وعدل صفوفهم -قد أمرهم ألاّ يقاتلوا حتى يأذن لهم، وقال لهم كما في الصحيح عن أبي أسـيد: «وإن أكثبوكم - أي أمكنوكم من أنفسـهم بالدنو منكم-فانضحوهم عنكم بالنبل، ولا تسـلوا السيوف حتى يغشوكم، واستبقوا نبلكم».

حكمة الأمر بعدم القتال حتى يأذن رسول الله ﷺ:

ويقع في سانحات الخاطر أن هذا الأمر كان من قبيل الحرص على تجنـب القتال الذي لم يكن من مقاصده ﷺ في خرجته، رجاء أن يتغلب التعقل الرصين على التعصب الأحمق المفتون والطيش الأهوج المسعور في أنفس طواغيت الكفر العنيد.

ويرشـح هذه السـانحة قـول النبي ﷺ، وقـد رأى عتبة بن ربيعـة فـي قومه على جمل أحمر: «إن يكن فـي أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا».[١]

وكان لعتبة موقف في المسالمة والدعوة إلى عدم الاشتباك بيـن الجمعين، أفسـده عليه وعلى الناس الفاسـق الملعن أبو جهـل، فقـد ذكر ابن إسحاق أن عتبة قـام خطيباً فـي قومه،

(١) مسند أحمد ٢/١٩٢.

فقال : يا معشر قريش والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه ، وابن خاله ، ورجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب ، فإن أصابه غيركم فذاك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعدموا منه ما تريدون .

موقف مسالمة عتبة بن ربيعة أفسده أبو جهل بعناده وحقده:

وأرسل عتبة برأيه حكيم بن حزام إلى أبي جهل ، فكبُر على هذا الفاسق الحقود أن يذهب عتبة بالزعامة ويستلبها منه ، فسجّر الشر بين الناس ، وأشعل نار الحرب ، وأغرى عامر الحضرمي بالمطالبة بثأر أخيه عمرو ، ومشى الشيطان بخيله ورجله ، وركب أعداءُ الله وأعداء الحق والخير صهوة الغرور الفاجر ، واستحوذ عليهم عتو الحقد ، وعناد العصبية الوثنية ، فذهلوا عن عقولهم ، وأضلوا أحلامهم ، وركبوا كل حمقاء جموح ، وزحفوا إلى صفوف المسلمين ليقاتلوهم وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب : "يا علي ناد حمزة" وكان حمزة أقرب جند الله إلى المشركين ، فجاء حمزة فقال له النبي ﷺ «من صاحب الجمل الأحمر ؟» فقال حمزة : هو عتبه بن ربيعة ، وهو ينهى عن القتال ، ويقول : اعصبوها برأسي ، وقولوا : جبن عتبة بن ربيعة ، وقد علمتم أني لست بأجبنكم .

فسمع أبو جهل بقول عتبة ، فقال له : أنت تقول ذلك ؟ لو غيرك يقوله لأعضضته ، قد ملأتْ رئتُك جوَفك رعباً ، فقال له

عتبة : إياي تعير ! سيعلم اليوم أينا الجبان ؟

وتنادت نذر الحرب ، وكان أول متعجل إلى جهنم الأسود المخزومي ، وهو رجل شرس سيء الخلق غليظ الطبع مأفون العقل ، أقسم ليشربن من حوض المسلمين أو ليهدمنه أو لَيُقتلنّ دونه ، ومشى إلى الحوض فتبعه أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب ، فأدركه قبل أن يصل إلى الحوض ، فضربه فأطنَّ قدمه بنصف ساقه ، فوقع اللعين على ظهره تشخب رجله دماً ، ثم اقتحم الحوض ، ورمى بنفسه فيه ، ولحقه حمزة فأجهز عليه .

ثم خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة ، وابنه الوليد بن عتبة وهم يدعون إلى المبارزة ، وقد أراد عتبة بهذا الطيش المأفون أن يرد تعيير أبي جهل له بالجبن في قوله له : ملأتْ رئتك جوفك رعبًا ، وكان عتبة قد رد على أبي جهل بأبْنه(٢) بداهية الدواهي ، سالبة الرجولية .

حمية الجاهلية تسوق عتبة وأخاه شيبة وولده الوليد إلى حتفهم في مبارزة أبطال بني هاشم:

وبرز إلى عتبة وأخيه وابنه ثلاثة من فتيان الأنصار البهاليل(٣) ، هم عوف ، وأخوه معاذ أو معوذ ابنا الحارث الأنصاري النجاري ، وكان ثالث الناهضين للمبارزة أحد أمراء مؤتة وأحد نقباء الأنصار عبد الله بن رواحة ، فقال عتبة لهم :

---

(٢)أبنه بالسوء : عابه

(٣) البهاليل جمع بهلول وهو السيد الجامع لصفات الخير .(المجلة)

من أنتم؟ فانتسبوا إليه، وقالوا: رهط من الأنصار فقال لهم عتبة: أكفاء كرام، ما لنا بكم من حاجة، إنما نريد قومنا.

اختلاف الروايات في أقران المبارزة:

ونادى عتبة ومن معه من وقود النار: يا محمد، أخرج لنا أكفاءنا من قومنا، فقال ﷺ: "قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا حمزة، قم يا علي" فقاموا سراعاً، ومشوا إلى القوم في الحديد ملثمين حتى دنوا منهم، فقالوا لهم من أنتم فتسمَّوا لهم، فقالوا: نعم أكفاء كرام، والتحم عبيدة وكان أسن الثلاثة بعتبة، وكان أسنَّ الأبعدين، فبارزه عبيدة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز عليّ الوليد بن عتبة، فقتل علي الوليد، وقتل حمزة شيبة، واختلف عبيدة وعتبة بضربتين، كلاهما أثبت صاحبه، فكرّ حمزة وعليّ على عتبة، فذفّفا عليه(٤).

وأخرج أبو داود عن علي قال: تقدَّم عتبة وتبعه أخوه وابنه، فنادى من يبارز، فانتدب له شبّان من الأنصار، فقال: من أنتم؟ فأخبروه، فقال: لا حاجة لنا فيكم، إنما أردنا بني عمنّا، فقال ﷺ: "قم يا حمزة، قم يا علي، قم يا عبيدة" فأقبل حمزة إلى عتبة، وأقبلتُ إلى شيبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان، فأثخن كل واحد منهما صاحبه، ثم ملنا على الوليد فقتلناه، واحتملنا عبيدة إلى رسول الله ﷺ ومخ ساقه يسيل، فقال: أشهيد أنا يا رسول الله؟ قال "نعم" قال عبيدة: وددت لو أن

(٤) ذفَّف عليه: أجهز عليه. (المجلة)

أبا طالب كان حياً ليعلم أني أحق منه بقوله:

ونسلمه حتى نصّرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

قال الحافظ ابن حجر: وهذا أصح الروايات من جهة الإسناد لأن إسناد أبي داود صحيح، لكن الذي في السير من أن الذي بارزه عليّ هو الوليد هو المشهور، وهو اللائق بالمقام، لأن عبيدة وشيبة كانا شيخين، وأن سن عبيدة كانت ثلاثاً وستين كعتبة وحمزة، فإن سن حمزة يومئذ كانت ثمانياً وخمسين، بخلاف علي والوليد فكانا شابَّين، إذْ سن علي يومئذ عشرون سنة، وقال ابن سعد الثبت أن عتبة لحمزة(٥)، وشيبة لعبيدة.

والاختلاف في روايات المبارزة، وفيمن بارز مَنْ، وفيمن قتل مَنْ اختلاف عريض لا طائل تحته، وقد اكتفينا منه برواية من أشهر روايات أصحاب السير، وبرواية من أصح روايات أصحاب الحديث، وأشرنا إلى رواية ابن سعد لقربها سندًا ومعنى.

ولما انتهت المبارزة بقتل أعداء الله ورسوله على يد أبطال الإسلام، وكان قد سبقهم إلى قليب جهنم الأسود المخزومي، واستشهد عبيدة بن الحارث، وشهد له رسول الله ﷺ بالشهادة وأفرشه قدمه -دخل ﷺ عريشه يصلي ويبكي، ويبتهل، متضرعاً إلى ربه مناشداً أن ينجز له وعده بالنصر إذْ خفق خفقة، وفي الصحيح لما كان بدر، ورسول الله ﷺ في العريش، ومعه الصديق أخذته سِنة من النوم، ثم استيقظ مبتسماً فقال: «أبشر

(٥) الثبت والثابت بمعنى واحد. (المجلة)

يـا أبا بكر، هذا جبريل على ثنايـاه النقع»(٦)، وفي حديث ابن عباس عند البخاري أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل آخذ برأس فرسه، عليه أداة الحرب».

بشائر المدد الإلهي وتنزل النصر:

وفـي البخاري من طريـق خالد الحذَّاء عـن عكرمة عن ابن عبـاس أن النبي ﷺ قـال وهو في قبة له يوم بـدر: "اللهم إني أنشـدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً" فأخذ أبو بكر بيده، وقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربـك، فخـرج ﷺ وهو يثب في الدرع وهـو يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ (القمر: ٤٥-٤٦)

آية مكية يظهر تأويلها في غزوة بدر:

قال جمهور المفسـرين: هـذه آية مكية ظهـر تأويلها يوم بدر، قال السيوطي في (الدر): أخرج ابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: أنـزل الله علـى نبيه بمكة قبل يوم بـدر ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ فقال عمر رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله، أي جمع سيهزم؟ فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش، نظرت إلى رسول الله ﷺ في آثارهم مصلتاً سيفه، وهو يقول:

(٦) النقع هنا بمعنى الغبار. (المجلة)

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ وكانت ليوم بدر، فأنزل الله فيهم:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴾ (المؤمنـون: ٦٤) وأنـزل ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ (إبراهيم: ٢٨).

ورماهم رسـول الله ﷺ فوسـعتهم الرمية ومـلأت عيونهم وأفواههـم، حتى إن الرجل ليقتل وهو يقذى عينيه، فأنزل الله ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (الأنفال: ١٧).

وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عـن عكرمة -رضـي الله عنه- قال: لمـا نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ قـال عمر رضي الله عنه: جعلت أقول: أي جمع سيهزم؟ حتى كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يثب في الدرع وهو يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ.

هـذه جملـة مـن الأحاديـث، بعضهـا موصـول، وبعضها موقوف، وهي صريحة في أن الآية مكية، فإخبار النبي ﷺ بها عنـد نزولهـا بمكة قبل يوم بدر -مما جعـل عمر بن الخطاب يتعجب، وهو يردد على نفسـه أي جمع سيهزم، وفي الرواية الموصولة أن عمر سـأل رسـول الله ﷺ عندما سـمعه يتلوها بمكـة، فقال: يا رسـول، أي جمع سـيهزم؟ ولكنـه لم يتلق جوابـا، ومرت الأيام والشـهور حتى كان يوم بـدر ورأى عمر رسـول الله ﷺ يتلوهـا وهو يثب فـي درعه متقدّمـاً إلى القوم

الكافرين ، قال عمر : فعرفت تأويلها يومئذ -إخبار بالغيب الذي لم يحن وقت تأويله فلما جاء تأويله ، يوم بدر تلاها رسول الله ﷺ فعلم الناس منها ما لم يكونوا يعلمون عند نزولها ، فكان هذا الإخبار آية من آيات الله في بدر.

لكن السيوطي قال في (الدر) : أخرج ابن أبي شيبة ، وابن منيع ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ قال : كان ذلك يوم بدر ، قالوا -أي المشركين- نحن جميع منتصر ، فنزلت الآية ، أي قوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾.

وهذا الأثر ظاهر في أن الآية مدنية نزلت في بدر ، لكن هذا الأثر يحتمل التأويل فلا يقاوم الأحاديث والآثار المتقدمة الصريحة في مكية الآية وهو ما عليه الجمهور ، والآية من سورة القمر وهي مكية بإجماع ، وهذا يرجح قول الجمهور أن آية ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ﴾ مكية كسائر آيات سورتها.

وقد حكى الخلاف في مكية الآية ومدنيتها أبو حيان في تفسيره (البحر) فقال : وفي قوله : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ﴾ عِدَة من الله -تعالى- لرسوله ﷺ بهزيمة جمع قريش(٧) ، والجمهور على أنها مكية ، وتلاها رسول الله ﷺ مستشهداً بها ، وقيل نزلت يوم بدر.

وسواء أكانت الآية مكية أم مدنية فهي من آيات الله الإعجازية التي تدخل في نطاق الإخبار بالغيب ، مبشرة

(٧) العدة والوعد بمعنى واحد .(المجلة)

للنبي ﷺ وأصحابه بتنزل نصر الله للقلة المؤمنة على جمع الكفر والفجور في كثرته ، المتعزز بالغرور والقوة المادية ، والتنفج(٨) بالكثرة العددية ، فالإعجاز موجود فيها على أي حاليها في النزول مكية أو مدنية ، وإن كان الإعجاز في مكيتها أظهر ، لبعد الزمن بين نزولها وتأويلها.

توالي الآيات الغيبية وتحقق النصر:

وقد استتبعت هذه الآية الباهرة آية أخرى قاهرة ، كما دل على ذلك حديث أبي هريرة في تعجب عمر حينما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ﴾ وسمع النبي ﷺ يتلوها ، فقال لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، أي جمع سيهزم ؟ وجعل يتطلّب تأويلها ويتطلع إلى زمن وقوعها ، ومعرفة أي جمع سيهزم حتى كان يوم بدر ورأى النبي ﷺ يخرج من عريشه وهو يثب في الدرع مصلتاً سيفه في وجه أعدائه وهو يتلوها(٩) ، فعلم عمر تأويلها ، وعرف أن الجمع المهزوم هو جمع الفجور والطغيان الذي حشدته قريش لإسْحات(١٠) جند الله الداعين إلى الحق والخير ، فقال عمر : ورماهم رسول الله ﷺ بكف من تراب وحصى ، فوسعتهم الرمية ، وعمّتهم ، وملأت أعينهم وأفواههم ، حتى إن الرجل ليُقتل وهو يحاول أن يزيل عن عينيه القذى ، فأنزل

(٨) تنفج : افتخر بما ليس عنده .

(٩) الصلت الجبين الواضح وإصلات السيف إخرجه من غمده للضرب به ، وهو أمارة على القصد والحماس

(١٠) أسحت الشيء : أهلكه واستأصله.

الله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ .

فكانت الرمية آية إعجازية قاهرة من آيات الله الذي جعلها من أعظم دعائم النصر المظفر، إذ جعل من رَمي حصيات في يد النبي ﷺ أمراً هائلاً، وقوة قاهرة مرعبة، استوعبت جميع أفراد حشود الشرك والفجور فملأت أعينهم وأفواههم وشغلتهم بأنفسهم، وأصابتهم بما أعجزهم عن الحركة في ميدان المعركة، وأذهلتهم عما يحل بهم من القتل، فهزموا شر هزيمة، ونصر الله أولياءه فأخذوهم قتلاً وأسراً وتشريداً، حتى عمهم الذل والهوان، وشملهم البلاء.

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشاً ثم قال: « شاهت الوجوه » ثم نفحهم بها، وأمر أصحابه وقال « شدوا » فكانت الهزيمة، فقتل الله من قتل من صناديد قريش وأسر من أسر من أشرافهم.

ونقل صاحب العيون عن ابن عقبة وابن عائذ قولهما: فكانت تلك الحصباء عظيماً شأنها، لم تترك من المشركين رجلاً إلا ملأت عينيه، وجعل المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم، وبادر المفر منهم، كل رجل منكباً على وجهه لا يدري أين يتوجه، يعالج التراب ينزعه من عينيه.

فالله -تعالى- أثبت لنبيه ﷺ رمي الحصيات، ولم يكن رميهن بمقتضى الطبيعة البشرية بقادر على أن يحدث شيئاً ممّا حَدَث، ولكن الله -تعالى- بيّن أن هذا الأثر الهائل العظيم المستوعب لمئات الأعين والأفواه والآنف إنما كان هو الذي

تولّاه باقتداره وقهره وجبروته، لأن ما نجم عن رمية النبي ﷺ من آثار مرعبة يستحيل في منطق العقل، ومألوفات الأسباب أن يحدث من رمية النبي ﷺ لحفنة من حصيات أخذهن بيده ثم رمى بهن وهو يقول: "شاهت الوجوه" ليعلم الذين لا يعلمون أن النصر بيد الله، ينزله من سماء فضله على من يشاء من عباده كما قال -تعالى- في القصة نفسها: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (آل عمران: ١٣).

كانت هذه الآيات توطيدا للإيمان بدعائم الإمداد الإلهي:

والمقصود توطيد دعائم الإيمان في قلوب المؤمنين، لينزع منها ما كان فيها من الركون إلى الأسباب الظاهرة مثل كثرة العدد وتوافر العدة، مما جعل بعضهم يكرهون الخروج للنفير بعد إذ فاتتهم العير متعللين بقلة عددهم وضعف عدتهم بالنسبة إلى كثرة عدد أعدائهم وقوة عدتهم، وتوافر أسباب القتال المادية عندهم، فالله -تعالى- إذ وعد رسوله بالنصر لم يربط هذا الوعد بأسباب مادية، ولكنه ربطه بالصبر والتقوى وصدق التوكل على الله وقوة الإيمان، ومعرفة سنن الله الخاصة والعامة، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟

﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (آل عمران : ١٢٣-١٢٦).

تحقيق في آيات الإمداد بالملائكة:

وهذه الآيات الكريمة نزلت في قصة بدر كآيات الأنفال تحقيقاً لوعد الله -تعالى- نبيه ﷺ بالنصر على أعدائه ولو بلغوا أعداد الرمل، فهي مع أخواتها في الأنفال درس تربوي فيما ينبغي أن يكون عليه المؤمن في جهاده لإعلاء كلمة الله، ليقتلع بها الركون المطلق إلى الأسباب المادية وينفي عنها ربط النصر بها وحدها، وقد كانت قلوب فريق من المؤمنين متعلقة بها تربط بوجودها النصر، وكره بعضهم أن يخرجوا مع رسول الله ﷺ لملاقاة نفير قريش وحشودها المتأهبة للقتال، وقالوا متعللين: إنما خرجنا للعير، وهي أحب إلينا.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (الأنفال: ٥-٨).

فهذا الدرس التربوي سيق مساق العتاب الشديد لهذا الفريق من المؤمنين ليبلغ من النفوس مداه، ويعطي أثره

التربوي في الأمة وهي معتصمة بمنهج نبيها ﷺ في ردّ الأمور كلها ظاهرة وباطنة إلى الله تعالى، لأنه العزيز الذي لا يغالب، الحكيم الذي أحاط بكل شيء علماً، فيضع الأشياء في مواضعها الملائمة لحكمته على مقتضى علمه واقتداره.

وهذا الدرس العتابي التربوي في هذه الآيات ارتبط بقضيتين، شبهت أخراهما بأولاهما، فالأولى المشبه بها في قضية التنازع في الأنفال بعد أن تحقق النصر وجمعت الغنائم، فقد تنازعوا فيها، وكانوا في هذا التنازع طوائف، وكل طائفة ترى أنها أحق بهذه الأنفال من غيرها، ونسوا ما كان منهم من كراهية الخروج للنفير، وهو الطائفة ذات الشوكة والقوة التي وعدهم الله بها وعداً غير معين لها تأنيساً لهم، فلما فاتت العير أصبح النفير متعيناً في الوعد الإلهي بفوات العير، وبما قرن به من إحقاق الحق وقطع دابر الكافرين الذين كانوا قلعة الباطل وحاميته. وإذا تلاشت قلعة الباطل وهلكت حاميته فتح الطريق أمام دعوة الحق ورسالة الهدى والنور، ومضت في طريقها ثابتة الدعائم راسخة القدم، لا تبالي بكراهية المجرمين وأحقادهم أينما كانوا من أرض الله وآفاق الحياة.

موقف الصحابة من الغنائم والأنفال:

قال السيوطي في (الدر): وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير وأبو الشيخ، وابن مردويه والحاكم والبيهقي في سننه عن أبي أمامة الباهلي قال: سألت عبادة بن الصامت عن

الأنفال؟ فقال: فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل، فساءت فيه أخلاقنا، وانتزعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء -يقول عن سواء- وقد فصل عبادة بن الصامت هذا الإجمال في رواية أخرى أخرجها سعيد بن منصور، وأحمد وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وأبو الشيخ، والحاكم -صححه- والبيهقي وابن مردويه عن عبادة ابن الصامت قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرا، فالتقى الناس فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم وهم منهزمون، يقتلون، وأكبت طائفة علي العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب منه العدو غرة حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها، فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، نحن نفينا عنها العدو، وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منا، نحن أحدقنا برسول الله، وخفنا أن يصيب العدو منه غرّة، واشتغلنا به، فنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ (الأنفال: ١). فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين، وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نفل الربع، وإذا أقبل راجعاً وكلّ الناس نفل الثلث، وكان يكره الأنفال ويقول: «ليردّ قوي المسلمين بعض ما أخذ على ضعيفهم».

إخبار الله - تعالى - عن كراهية بعض الصحابة للخروج للقتال:

أما القضية الثانية التي ارتبط بها هذا الدرس العتابي التربوي، وهي المشبهة بقضية موقف الصحابة رضي الله عنهم في الأنفال وتنازعهم فيها، فهي قضية الخروج مع رسول الله ﷺ إلى بدر للقاء العدو بعد إذ فاتتهم العير وأموالها، فقد كره هذا الخروج للقتال فريق من المؤمنين، وجادلوا فيه رسول الله ﷺ، فقالوا: إنما خرجنا للعير، ولم نتأهب للقتال، وليس لنا بالنفير طاقة، وكان جدالهم هذا بعد ما تبين لهم الحق، وأن الله -تعالى- وعد نبيه ﷺ إحدى الطائفتين دون تعيين، إما العير، وإما النفير، وقد بينوا أن صغوهم وميلهم كان للعير، لأنها أيسر أخذاً، وأكثر مغنماً لكثرة ما فيها من أموال قريش وقلّة حاميتها.

وإذ فاتت العير، ونجا بها قائدها أبو سفيان بن حرب لم يبقَ أمام إنجاز وعد الله لنبيه ﷺ ووجوب الخضوع والتسليم إلا السير لملاقاة نفير قريش، وفيه صناديدها وأشرافها، وما تأهبت به من عتاد ومؤن وأسلحة ومراكب وشوكة، فهو أعظم قدراً، وأضخم نصراً، وأروع أثراً، وأنجح سبيلاً في القضاء على المعوقات التي تقف في طريق انطلاق المجتمع المسلم لنشر دعوته، دعوة الحق والخير.

ثم وصف الله -تعالى- ما لحق فريقاً من المؤمنين في كراهيتهم للخروج وملاقاة النفير من هزة وارتياع إذ علموا كثرة عدد نفير قريش، وقوتهم المادية بالنسبة لما كان

عليه أهل الإيمان من قلة عددهم وضعف عدتهم، ووقوفهم مع الأسباب المادية الظاهرة التي ربطوا بها النصر، ولم يستطيعوا الانتقال من هذه الحالة التي أخلدوا بها إلى الأرض وأسبابها، لأنهم كانوا لا يزالون متأثرين برواسب الحياة القتالية في بيئاتهم التي لم يطل عليهم زمن خروجهم منها إلى دوافع الإيمان وقوة اليقين التي كانت كفيلة برفعهم إلى آفاق العزائم الصادقة.

ولهذا جاءت مشاورة النبي ﷺ لترفعهم إلى ذروة اليقين ورسوخ الإيمان، وعاودهم الاعتزاز بفداء دعوتهم بالأرواح والأموال، وقوة العزائم.

وفي حديث أبي أيوب أن النبي ﷺ شاور الناس بعد إذ فاتته العير، فقال: «ما ترون في القوم؟ فإنهم أخبروا بمخرجكم» فقلنا: لا، والله ما لنا طاقة بقتال القوم، ولكنا أردنا العير، ثم قال ﷺ «ما ترون في قتال القوم؟» فقلنا مثل ذلك ... فأنزل عز وجل على رسوله ﷺ ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ (الأنفال: ٥).

وهذا موقف من أروع مواقف المنهج الإلهي في الرسالة الخاتمة، وأشدّها حزماً، وأقواها عزماً، وأبلغها أداء في تحويل المجتمع المسلم ونقله في دفعة واحدة من رواسبه الاجتماعية التي ورثها عن بيئته الجاهلية التي عاش فيها قبل أن تشرق في آفاقه شمس الهداية لتضيء حنايا نفسه، وتكشف له عن حقائق الحياة في أوسع مجالاتها.

نقل المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية إلى مشاهد الآيات الغيبية:

هذا المجتمع المسلم الذي عاش في رواسب الجاهلية وموروثاتها أزمانًا متطاولة طبعته بطبيعتها في حياته كلها، تأتيه الرسالة الإلهية الخاتمة لتخرجه بمنهجها من ظلمات تلك الرواسب إلى نور الإشراق الروحي والتحرر الفكري والانطلاق العقلي، لترتفع به من حضيض الشرك والوثنيات إلى ذروة التوحيد الذي يجعل منه قائدًا للإنسانية ورائدًا لهدايتها من ضلالاتها العقائدية والاجتماعية، في دورة زمنية ليس لها في حساب دورات الفلك التي مرت عليه مترسبًا في حمأة العصبيات القبلية لا يعرف إلا القوة المادية يحتمي بها، ويتخفى وراءها في مغالباته القتالية ليأخذ بها ما ليس له بحق، وهو يعيش في رواسبه بقلوب خاوية من المعارف الروحية، وعقول راشفة من ندى العلم والإيمان، العلم الذي يطلعه على ما في خزائن الله من آيات كونية وقوى معنوية، لا توزن معها القوى المادية في ميزان، والإيمان الذي يُشهده حكمة الله في سننه الخاصة حتى يعلم أن الله -تعالى- تدبيرًا في ملكوته لا تقيده سنن الحياة العامة، ويزداد إيمانًا إلى إيمانه، وعلمًا إلى علمه وقوة إلى قوته، وتسليمًا في إيمانه بالله إلهًا واحدًا، منفردًا بالتدبير والحكمة.

هذا كله في واقع الحياة - وهي كلها أينما وجدت من أرض الله، قبل أن تنزل رسالة السماء الخاتمة على محمد ﷺ حياة جاهلية ضالة، أشبه في منطق سنن الحياة العامة بالطفرة التي لم يتقدمها تمهيد يعدّها لهذا التحول بعيد المدى.

تأثر المجتمع المسلم في مبدأ حياته برواسب الجاهلية:

والمجتمع المسلم إذ ذاك كان لا يزال من المجتمع العربي المتحجِّر في معارفه وأفكاره، وتربيته وسلوكه، فتحويل هذا المجتمع المسلم إلى مجتمع إنساني يهتدي بمنهج السماء، ويهدي بهذا المنهج الإنسانية كلَّها حتى تستطيع أن ترفع رأسها عن الأرض صاعدة في مدارجها العقلية ومنازلها الروحية إلى سماء المعرفة الإلهية لتشهد آيات الله في الكون وتحركاته، وتشهد في هذا التحرك سنن الله العامة والخاصة التي يسير بها هذا الكون العظيم في ظل الإرادة الإلهية المطلقة التي لا تقيدها حدود ولا تقف أمامها قوة مادية مهما كان شأنها.

هذا التحول أمر لا يتمشَّى في ظاهره مع مقتضيات السنن العامة، فهو بمظنة الإنكار لمن لم يتعمق التفقه في سنن الله. والسننُ الإلهية الخاصة كالسنن العامة لها قدرها ومكانها في تسيير الحياة وتحركات العناصر الكونية، كما يقرر ذلك القرآن العظيم في نحو قوله: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ٢٤٩)

ولهذا كان أول ما صنعه رسول الله ﷺ مقدمه المدينة في تطبيق هذا المنهج أن أقام بناء مجتمعه المسلم على الحب المتكافل بين الأفراد والجماعات، ليخرج أصحابه من رواسب التعصب القبلي إلى وحدة الإيمان، فجعل من المهاجرين والأنصار وحدة إيمانية في أخوة فردية أساسها الحب الذي يرتكز على الإيمان، وقال لهم ولسائر أمته من بعده: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب

لنفسه"(١١) وليقل المتأولون الحرفيون في تأويل قوله ﷺ: "لا يؤمن أحدكم" ما يقولون، ورسول الله ﷺ هو القيّم على تطبيق منهج الرسالة وتعبيره ﷺ هو المهيمن على مرمى التطبيق وأهدافه، فقول المتأولين لا يغير من وضع التعبير النبوي شيئًا ولا يضر التطبيق، لأن الإيمان في منهج الرسالة الإلهية حقيقة واحدة هي التي أوجزها القرآن الكريم في أبرع أسلوب بياني فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ وتعبيرات القرآن عن مقاصده في الحياة حقائق سماوية في تفصيل تركيب آياته من الجمل والكلمات والحروف الساذجة أو المعبرة.

الوحدة الإيمانية في قوله جل شأنه ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾:

فإذا قال القرآن وهو يقرر الوحدة الإيمانية للمجتمع المسلم بين أفراده وجماعاته: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ كانت كلمة (إنما) في التطبيق العملي لمنهج الرسالة بمعناها الاستعمالي في الفصاحة العربية عنصرًا أساسيًا في بناء الجملة المقررة للوحدة الإيمانية، والإيمان في مادة كلمة (المؤمنون) لا يعني قط الخلافات المتفلسفة التي أفنت أعمار الفلاسفة والمتكلمين دون طائل، وإنما يعني الإيمان كما جاء في نص منهج الرسالة ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾

(الحجرات: ١٥)

(١١) رواه البخاري ومسلم.

وإذا ختم النص المنهجي جملة الوحدة الإيمانية بكلمة (إخوة) كانت هذه الكلمة هي اللبنة التي بها يستمسك بناء الجملة كلها، لتكون نموذجًا لمنهج الرسالة في دستور المؤاخاة الاجتماعية التكافلية التي عقدها رسول الله ﷺ بين جماعتي المجتمع المسلم، وسجلها في كتاب أخذ مكانه في مطلع وثائق التاريخ الإسلامي من كتب السيرة والحديث.

وكل ما يقرره القرآن العظيم من سنن إلهية عامة أو خاصة يمثل جانبًا من جوانب المنهج في الرسالة الخاتمة، وهذا المنهج علم وعمل، والرسالة الخاتمة في جملتها وتفصيلها تعبير فكري عن الجانب العلمي في منهجها وتطبيق واقعي لجوانب العمل في هذا المنهج.

وقد كانت سياسة النبي ﷺ النابعة من منهج رسالته في تربية مجتمعه المسلم تربية تنقله من تراث الرواسب الموروثة عدم المباعدة بين هذا المجتمع لقيادة الحياة وبين سنن الله الكونية العامة التي تحكم سير الحياة ونظامها العام، وتربط الأحداث والوقائع بأسبابها المألوفة في هذه الحياة، ربطًا يُرتّب عليها مسبباتها عند وجودها ترتبًا واقعيًا، ما لم تكن هناك عوارض خفية تعوق هذا الترتب الواقعي.

وهذا الوضع في هذه الرسالة الخاتمة أساس تربية المجتمع المسلم على الكفاح الصبور، والنضال المتحفز في سبيل إحقاق الحق وإبطال الباطل حتى لا يركن هذا المجتمع إلى الكسل المستسلم، وللخمول المتحجر، والتثاؤب النئوم في انتظار

الخوارق والآيات تتنزل عليه، وترقب المعجزات تسوقه في حياته، مما يؤدي إلى الاستغراق في تعطل القوى الإنسانية التي منحها الله لكل إنسان على قدر استعداده اطّراحًا للأسباب والأخذ بها، والإخلاد إلى الأرض في استسلام متبلّد واستكانة متجمدة.

وكان النبي ﷺ محيط العلم في تربيته لمجتمعه المسلم بأن الأسباب المألوفة العامة في حياة الناس ليست إلا نوعًا من الأحداث المشاهدة في واقع الحياة كالغائب المحجوب كما تقضي به فاعلية السنن العامة في مسيرة الحياة ونظامها، وتحركات الكون بما فيه من عناصر السلب والإيجاب والنفي والإثبات.

وهذا الربط بين الأسباب ومسبباتها في دائرة السنن الكونية العامة ليس ربطًا محتم الوقوع بمقتضى مدركات العقل ومنطقه؛ لأنه قد يتخلف إذا كان أدنى من مستوى الإيجاب الحتمي لتدخل بعض خفيّات الأمور التي هي فوق مستوى الإدراك العقلي تدخلًا يحد من فاعلية الأسباب في ترتب مسبباتها عليها.

ومن ثَمَّ كان الإيمان بعدم الوقوف عند هذه الأسباب وظواهرها المتسقة مع مجرى السنن الكونية العامة ضرورة في التربية العملية والتوجيه السلوكي للمجتمع المسلم، ليعلم هذا المجتمع أن وراء هذه الأسباب في تسيير الحياة ونظامها موجبات أخرى لها آثارها في وقوع الأحداث على غير ما تقضي به السنن الكونية العامة، ولكن هذه الموجبات لا يحكمها المنطق العام للعقل وحده، ولا تخضع خضوعًا مطلقًا لمجرى السنن الكونية

العامة في نظام الحياة، وإنما يحكمها نظام خاص يربطها بسنن إلهية خاصة، يتحكم في ربط بعض الأحداث بموجباتها الغيبية عند توافر دواعيها ومقتضياتها.

وهذه السنن الخاصة لا يظهر أثرها في التحكم في سير بعض الأحداث إلا في أوقات خاصة ومقتضيات خاصة، وقد يعم أثرها نظام الحياة في هذه الأوقات الخاصة فتشتبه معالمها في عموم أثرها بالسنن الكونية العامة.

والمثل الواضح لذلك هو آيات الله -تعالى- التي يؤيد بها رسله، وقد تشتبه بها عند بعض العقول القاصرة وثبات العلم الكوني، واستكشاف تفاعلات عناصر الطبيعة التي يضيق حيّزها عمن ليس من أهلها، فلا يدخله إلا قلّة ضئيلة من ذوي العقول الموهوبة بالتفرد لمعرفة سنن الكون في سيره وتحركات عناصره وكشف أسراره، مع الغفلة عن دلالتها على مبدع سنن الكون العامة والخاصة.

وهذا الوضع متحقق في منهج الرسالة الخاتمة أكمل تحقق بجانبيه العلمي والعملي، وعلى أساسه أقام رسول الله ﷺ بناء مجتمعه المسلم في تربيته السلوكية، فقد أخذ ﷺ أفراد هذا المجتمع وجماعاته بدءًا على ضرورة معرفة السنن الكونية العامة، وربط الأسباب بمسبباتها، وأخذهم نهاية على وجوب تطبيق هذه المعرفة على أحداث الحياة ووقائعها، ووكل أمر السنن الخاصة لمناسباتها ومقتضياتها.

غزوة بدر نموذج كامل لتطبيق منهج الرسالة علمًا وعملًا:

وقد جعلنا من الحديث عن غزوة (بدر) نموذجًا لتطبيق رسول الله ﷺ منهج رسالته في جانبيه العلمي والعملي؛ لأن هذه الغزوة كانت أول وأضخم حادث باغت المجتمع المسلم في حياته الجديدة.

وقد كانت هذه الغزوة بملابساتها العسكرية والسياسية والاجتماعية، وبما وقع فيها من أحداث، وبما ترتب عليها من آثار عظيمة حرية أن تكون نقطة تحول المجتمع المسلم من الاستمساك بتراثه الموروث من رواسب الجاهلية إلى منهج الرسالة الإلهية الخاتمة علمًا وعملًا، لأنها كانت بمقتضى وضعها الإلهي بدءًا، ونهاية الإطار الذي جمع الخطوط المتشابكة من السنن الكونية العامة والسنن الكونية الخاصة.

وقد بيَّنَّا أن مقدماتها كانت لا تحتاج إلى الخروج عن السنن الكونية العامة، فأجراها رسول الله ﷺ في دائرتها، وقد فصلنا الحديث في تلك المقدّمات إلى أن استنفر أبو سفيان بن حرب أمير العير قريشًا، فنفرت على الصعب والذلول، متأهبة للقتال الذي أعدت له كل ما تملك من قوة مادية من الرجال والأموال والسلاح، وسارت تضرب الأرض بأقدام صلفها وغرورها حتى انتهت إلى ماء (بدر) ولم تسمع لأمير عيرها إذ يسترجعها ويثنيها عن القتال لأنه نجا بعيرها.

وقد اتخذ رسول الله ﷺ منذ وردته أخبار نفير قريش كل ما يمكن اتخاذه لمعرفة تحركات قريش ومعرفة أعداد رجالهم ومن

كان فيهم من أشـرافهم، ومدى ما تأهبته من قوة مادية في العتاد والسلاح، وأخبر أصحابه بما انتهى إلى علمه، وشاورهم في الأمر، فأشـار راسـخو الإيمان منهم بما أثلج صدره ونشطه، وأخلد فريق منهم إلى الأرض كارهين للقاء عدوهم وقتاله، يجادلون رسـول الله ﷺ في الحق الذي قدره الله لهم من النصر وكسـر شـوكة العدو، يقولون له: عليك بالعير يا رسول الله، فإننا خرجنا لها وهي أحب إلينا، ولا طاقة لنا بقتال القوم.

ثم جعل رسول الله ﷺ يقول: "أشيروا عليّ أيها الناس" ليستنزل علـى قلوبهم غيث اليقيـن، ويخرجهم من محابس الأسـباب إلى منـازل الانطلاق مع سـنن الله الخاصة، فأجـاب الخيّران: أبو بكر وعمـر، وتبعهما النجيب الأريب المقداد بن عمرو، ثم قام سـيد الأنصار سعد بن معاذ فكشف الحجب، وسرَّى عن رسول الله ﷺ، ومسح عن جبينه آثار الغضب، ونشَّطه للقاء العدو.

وكانت مشـورة الراسـخين في العلم بالله متنزل السكينة على قلوب المسـلمين بأغـلال الرواسـب الموروثة فأسـرعوا اللحاق بإخوانهـم الراسـخين، واجتمعـت كلمة المجتمع المسـلم على لقاء العدو، وموافقته في القتال إعلاء لكلمة الله، ومتابعة لرسـول الله ﷺ، فتبلـج وجهه ﷺ إشـراقًا والتفت إلى أصحابه يبشـرهم بالنصر، وأراهم مصارع القوم، وقال لهم: "سيروا على بركة الله".

والمتأمل في سـير حوادث مقدمات هـذه الغزوة المباركة يرى أن النبي ﷺ قد أخذ جانبي منهج رسالته العلمي والعملي، فجعل منهما ركيزة تقوم عليها المعرفة والتطبيق في مسـتقبل حياة هذا المجتمع المسلم.

ولـم تكن هذه السياسـة المحكمة لتخلو مـن صدمات مباغتة صارمة للمجتمع المسلم الناشئ في تركيبه الإيماني الجديد، وقد كان لهذه الصدمات المباغتة قوتها القاهرة في اقتلاع جذور بعض الرواسـب الجاهلية الموروثة من نفوس غير الراسخين، وكان لها أثرها الفعال في تيسـير التحول الأساسـي عن الرواسب الجاهلية الموروثة في سرعة قياسية فاقت كل مقاييس التخلص من الماضي المترسِّـب في النفـوس إلى فاعليـة الوحدة الإيمانيـة التي نقلت المجتمع من رواسبه الرابطة له بالأرض، المغلّلة له بقيود الأسباب ومقتضيـات السـنن الكونية العامة إلى إشـراق الهدايـة الروحية والتحرر الفكري باعتبارهما طريقًا إلى سـاحة سـنن الله الخاصة، إذا توافـرت موجباتها، وتفتحت لفهمها مـدارك العقل عن طريق الإشراق الروحي.

إلى هنا تكون مقدمات اللقاء بين الفريقين -فريق القلة المؤمنة الممثّلـة في جماعة المجتمع المسـلم التي رافقت النبي ﷺ على غيـر أهبة لحرب أو قتال في خرجته لملاقاة العير، ثم تحول الأمر إلى لقاء العدو في حشوده المتأهبة لأعتى معركة يخوضونها - قد استوفت ما ينبغي أن تستوفيه بمقتضى السنن الكونية العامة جريًا على مقتضى ربط الأسـباب المألوفة بمسـبباتها التي لا تستعصي علـى مـدارك العقل ومألـوف الحياة، ولا سـيما في بيئـة كالبيئة العربية المحجوبة بمواريثها الجاهلية وأنظمتها القبلية، وأسبابها المادية المسـتعبدة لتفكيرها عن مشاهدة السنن الكونية الخاصة التـي ترتبط بتحـرر العقل من أغلال البيئـات الوثنية التي لا ترفع رأسها إلى السماء لترى تلألؤ الروحانيات المشرقة.

وقد طبق النبي ﷺ هذه المقدمات تطبيقًا كاملًا، فأخذ لكل أمر أهبته، وقابل كل حركة بما يناسبها من تدبير وإجراء، فأرسل في صمت وسرية ليعلم حركات أعدائه وأعداء مجتمعه المسلم ويكشف لأصحابه حالهم ومدى قوتهم، ومن يقودهم من أشرافهم وطغاتهم ليكونوا على بصيرة من أمرهم ليبعث فيهم الحمية، ويعدّهم نفسيًا ليعرف ضعيفهم أن مواريثهم من رواسب الجاهلية لن تفيدهم في موقفهم من لقاء عدوهم، وأنهم لا بدّ لهم من الالتجاء إلى الله وصدق التوكل عليه، والثقة فيما عنده من قوى روحية يمد بها من يشاء من عباده، ويزداد قويهم من راسخي الإيمان يقينًا وإقدامًا وشجاعة وحبًا للاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، ودفاعًا عن الحق والعدل، ويتم بينهم التمازج في وحدة إيمانية تنقلهم من رواسب الماضي إلى تلقي مفاجآت الغيب القائمة على نظام السنن الكونية إذا تطلبها الموقف وتوافرت موجباتها، وتراءت مقتضياتها.

وهاهي ذي لوائح تنزل السنن الخاصة تلوح معالمها لتأخذ مكانها في جهاد المجتمع المسلم القتالي الذي ألجئ إليه إلجاءً؛ لأن الموقف بلغ مرحلة التطلع إلى تنزل تلك السنن الخاصة بعد أن انتهت مرحلة السنن الكونية العامة التي ترتبط بالأسباب المقتضية لمسبباتها، بانتهاء التدبير في مقدمات لقاء العدو، وابتداء نشوب المعركة بين قوتين تتفاوت أوضاعهما المادية تفاوتًا يجعل من المستبعد، بل من المحال أن تقف القلة المؤمنة أمام الكثرة الضخمة في أقصى تأهبها في ظل الترابط بين الأسباب والمسببات بمقتضى نظام السنن الكونية العامة.

وتدانى الفريقان، وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه أحسن تعبئة، وصفّهم، وعدل صفوفهم، ونظر إليهم في قلة عددهم وضعف عدتهم وما أحاط بهم من بلاء المنازلة لقوم يضعفونهم بعددهم وقوتهم المادية أضعافًا مضاعفة، مع صلف(١٢) الاستكبار، وشراسة اللقاء، وتحدي الغرور، وفجور الكفر العتي، والتكالب على سفك الدماء، واستئصال شأفة أهل الإيمان، وعصابة التوحيد والهدى والنور التي إن هلكت على أيدي هؤلاء الفجرة من أحلاس الوثنية وعبدة الأصنام فلن يبقى لله دين يعبد به في الأرض.

ودخل ﷺ عريشه يصلي، ويبتهل، ويبكي متضرعًا، وهو يناشد ربه، ويسأله نصره الذي وعده، ويستنجزه عهده، ودخل معه العريش صاحبه في الغار والهجرة، وصديقه ورديفه في السبق إلى الإيمان برسالته دون كبوة، أبو بكر -رضي الله عنه- شاهرًا سيفه ليس معهما إلا الله -تعالى- بتدبيره وقهره واقتداره، ووقف على باب العريش سعد بن معاذ في فتية من الأنصار لحراسة رسول الله ﷺ أن يجد العدو منه غرّة.

وإذا به ﷺ يخفق خفقة تأخذه فيها سِنَة من النوم وقد كاد العدو يلتحم بالمؤمنين فيستيقظ رسول الله ﷺ من خفقته وما أخذه فيها من سِنَة نوم مبتسمًا، مسرورًا، يضيء وجهه كأنه شقة القمر، وهو يبشر أبا بكر بتنزل نصر الله، وإمداده بجند من عوالم غيبه، يقدمهم القوي المكين، المطاع الأمين جبريل عليه السّلام،

(١٢) الصَّلف: التكبر والعجرفة، معجم المعاني الجامع. (المجلة)

وعلى رأسه أداة الحرب، ويخرج رسول الله ﷺ من العريش إلى ميدان المعركة، وهو يثب في درعه، ويتناول حصيات يرمي بها في وجوه أعدائه، فتسعهم وتعمهم على كثرة أعدادهم، فلم تترك منهم أحدًا إلا ملأت فمه وعينيه ومنخريه، فشغلتهم عن أنفسهم، حتى إن الرجل منهم ليُقتَل وهو يقذي عينيه.

ليس هذا فحسب، ولكن الله -تعالى- يزيد نبيه ﷺ حفاوة فيريه في منامه أعداءه على كثرة أعدادهم قلة ضئيلة ليذهب هيبة كثرتهم من قلوب القلة المؤمنة، ويطمعهم فيهم، ويجرئهم عليهم في قتالهم، بل يزيد الله -تعالى- في تلطفه بعباده المؤمنين فيعم حفاوته حتى تنال جند المجتمع المسلم بعد أن أخبرهم النبي ﷺ برؤياه ليزيدهم يقينًا في حفاوة الله بهم، فيروا أعداءهم الذين كانوا يتهيبون كثرتهم رؤية عين قليلين.

أخرج ابن أبي شيبة عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: لقد قُلِّلُوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: لا، بل مئة، حتى أخذنا رجلًا منهم، فسألناه؟ قال: كنا ألفًا.

فرؤيا النبي ﷺ منامية، وهي من مراتب الوحي، ورؤية الصحابة بصرية يقظية بدليل قوله: "رأي العين" في آية آل عمران ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ﴾ وقوله: "في أعينكم" في الأنفال ولا داعي مطلقًا للتأويل؛ لأن هذا من قبيل الإمداد الإلهي، وهو جارٍ على مقتضى نظام السنن الكونية الخاصة، فالآيات متوافقة، وهي كلها

في قصة واحدة هي غزوة بدر، والظاهر أن رؤيا النبي ﷺ كانت في خفقته وهو في العريش قبل التحام القتال، ورؤية الصحابة كانت عند الالتقاء للقتال، وقد حكى بعض المفسرين الإجماع على أن آية ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ﴾ مثل آيتي الأنفال ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤٣ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾

(الأنفال: ٤٣، ٤٤)

بدرية، نزلت في غزوة بدر تحذيرًا لبني قينقاع من اليهود، وردًا عليهم في غرورهم، وقولهم عند علمهم بهزيمة قريش في غزوة بدر: لو قاتلنا محمد لعلم أنَّا الناسُ، وأنَّا أخبرُ بالقتال من قريش، فنزل قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ ﴾ -أي عبرة زاجرة- ﴿ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾. (آل عمران: ١٢، ١٣)

قال أبو حيان في تأويل: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾: والمراد بالقلة هنا قلة القدر والبأس والنجدة، وأنهم

مهزومـون، مصروعـون ولا يحمل على قلة العـدد؛ لأن النبي ﷺ رؤيـاه حـق، وقد كان علم أن المشـركين مـا بين التسـع مئة إلى الألـف، فلا يمكن حمل ذلك على قلـة العدد، ويظهر أن أبا حيان وَهَـل عن أن المقام مقام إعجاز وآيات غيبية، وهذا عدول عن مقام نـزول الآيات، وأنهـا نزلت بمعجـزات للنبي ﷺ علـى مقتضى سـنن الله ـ تعالى ـ الخاصة في تدبير أمر عباده، فعلمُ النبي ﷺ أن المشـركين كانوا ما بين التسـع مئة إلى ألف كان من قبيل الواقع المرتبـط بأسـبابه العامة، ورؤيـاه لهم في المنـام –وهي رؤيا حق لأنهـا إحدى مراتب الوحي– قليلًا من قبيـل الإعجاز الجاري على مقتضيات سنن الله الخاصة، والتقليل الموافق للحق يحتمل أن الله ـ تعالـى ـ حجب عددهم الـذي كان يعلمه، وأراه عددًا يبدو قليلًا، وهذا من قبيـل تكثير الطعام والماء القليلين لكفاية العدد الكثير الـذي يسـتحيل بمقتضى الأسـباب العادية أن يكفيهـم، فتكثير الطعام والماء كتقليل العدد كلاهما يكون بأسباب خفية يستأثر الله بها.

وأبـو حيان يقـول في تأويـل الآية الثانيـة: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾: وقلـل الكفار فـي أعين المؤمنين تحقيرًا لهم، ولئلا يجبنوا عن لقائهم.

والمؤمنـون كانوا قد علموا علمًا قاطعًا بإخبار رسـول الله ﷺ لهـم بـأن نفير قريش كان ما بين التسع مئة والألـف، وتقليل الله الكفار في أعين المؤمنين لا بد أن يكون جاريًا على سـبب خاص، وهـو حق واقع لعلمهم بكثـرة عددهم بإخبار النبي ﷺ بذلك فما

يقـال هنا يقـال هنـاك، والمرجع بالنسـبة للنبـي ﷺ الوحي في رؤياه، والمرجع بالنسـبة للمؤمنين فـي تيقنهم كثرة عدد الكفار قبل رؤيتهم لهم قليلًا هو إخبار رسول الله ﷺ بذلك.

وزاد أبو حيان في تعسّفه فزعم أن عبد الله بن مسعود حين قال: لقـد قُلِّلوا في أعيننا حتى قلتُ لرجل إلى جنبي: أتراهم سـبعين؟ قال: أراهم مئة: فقال أبو حيان: وهذا من عبد الله لكونه لم يسمع من رسول الله ﷺ ما أعلم به من عددهم.

وهـذا عجيـب من أبي حيان؛ لأن أسـلوب عبد الله بن مسـعود واضـح فـي أنه كان على علـم بكثرة عدد الكفار، قبـل أن يتلاقى الفريقان، ثم قللهم الله في أعين المؤمنين؛ لأن تعبير ابن مسـعود بقولـه: قُلِّلـوا فـي أعيننـا واضح فـي أن التقليل طـارئ على عدد الكفار، وأنهم كانوا في واقعهم كثرة أرهبت بعض المؤمنين.

وهـذا المعنـى هـو الذي تفيـده صياغة الفعـل (قُلِّلـوا)، قال الفيومي في (المصباح): وقلّلته في عين فلان تقليلًا، جعلته قليلًا عنده حتى قلّله في نفسه، وإن لم يكن قليلًا في نفس الأمر.

وأسـلوب الآيـة ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾، واضـح في الامتنان على المؤمنيـن بتقليل العدد الكثير الذي كان يخيفهم، ويؤكد هذا ما جاء في آية آل عمران ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ﴾، على أرجح تأويلاتها.

ويقـول أبـو حيان: فإن كانـت هذه الآية وآيـة الأنفال في قصة واحـدة وقد نقل أبو حيان نفسـه قول صاحـب ري الظمآن: أجمع

المفسرون على أنها في وقعة بدر – أي آية ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ﴾، فالجمع بين هذا التكثير، وذاك التقليل باعتبار حالين، قُلِّلوا أولًا في أعين الكفار حتى يجترئوا على ملاقاة المؤمنين، وكُثِّروا حالة الملاقاة حتى قهروا أعداءهم وغلبوهم.

ومما جرى في مجرى السنن الخاصة في تأييد الله لعباده المؤمنين أنهم كانوا قد نزلوا واديًا دهسًا مرملًا تغوص فيه الأقدام، ويتعثر المشي على أرضه، وتتعذر الحركة فيه، وكان هذا الوادي عديم الماء، فأصابهم من النزول فيه بلاء شديد، وجافاهم النوم، وأجنب كثير منهم، فأصبحوا لا يجدون ماء ليشربوا منه ويتطهّروا لصلواتهم، وداخلهم الشيطان بوساوسه، يخوفهم بكثرة أعدائهم وقلة عددهم، ويفتنهم بأنهم يصلُّون وهم مجنبون، ويضخم لهم ما هم فيه من بلاء ليثبط عزائمهم عن ملاقاة أعدائهم.

ولكن الله - تعالى - الذي جعل من سننه الخاصة أن الفئة القليلة المؤمنة الصابرة المعتمدة عليه في صدق توكلها وعظيم ثقتها الفئة الكثيرة الباغية بفجور كفرها، المغرورة بكثرة عددها وقوة عدتها المادية- تداركهم بلطف فغشَّاهم النعاس أمنة منه، ويطمئن قلوبهم ويسكن نفوسهم، ويهدئ من روعهم، لتعود إليهم عزائمهم في صدق التوكل عليه، ويعلمون أن النصر بيد الله، ينزل من السماء بفضله على من يشاء من عباده، لا بكثرة العدد، وقوة العُدد، فـ ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

فلما ذهبت عنهم غشية النعاس المؤمِّنة لقلوبهم وجدوا من أنفسهم راحة ونشاطا، وتنزّلت عليهم السكينة، وطابت أفئدتهم،

وتحلّبت عليهم السماء بالغيث، وأنزل الله عليهم الماء، فلبّد لهم الأرض، فكانوا إذا سعَوا عليها، وتحركوا فوقها كانوا كأنما يسعون على الصفا مطمئنين، بعد أن كانت أرجلهم تسوخ[١٣] في رمال دَهِسة لا تماسك بين حباتها، فشربوا وتطهّروا، وملئوا أوعيتهم، وربط الله على قلوبهم وثبّت أقدامهم، وأذهب عنهم رجز الشيطان ووسوسته، وكانت هذه النعمة على المؤمنين نقمة على الكافرين، فلم تستقم لهم حركة في قيام أو قعود.

فتغشية المؤمنين بالنعاس في وقت شدة الخوف والرعب، والقلق النفسي مما لا يمكن أن يكون معه نوم، وإنزال الماء الذي لبَّد الأرض تحت أقدامهم وطهرهم، وروى ظمأهم آيات إلهية أكرم الله بها نبيه ﷺ وأصحابه، لتكون تمهيدًا يعدهم نفسيًا لتلقي إمداد الملائكة، لأن إنزال الملائكة ليكونوا معهم مكثرين لأعدادهم، ومقاتلين في كتائبهم أجلّ وأعظم من جميع ما وقع من الآيات كتقليل العدد وتكثيره في رأي العين، وتغشية النعاس أمنة لهم، وإنزال الماء وتلبيد الأرض تحت أقدامهم، أعوص إدراكًا لدى العمل البشري، لا سيما العقل الذي نهد وشب في بيئات أبعد ما تكون عن تصوّر الحقائق الغيبية المرتبطة بمعرفة جلال الألوهية وكمالها في الخلق والإبداع.

وهذا مما يقوي عزائمهم لملاقاة أعدائهم بقوة إيمانية قاهرة، يعقد النصر الذي إستأثر الله بأسبابه بها، وهي آيات ليس للسنن الكونية العامة تحكم فيها، وإنما هي جارية على قوانينها الخاصة التي تحكمها سنن كونية خاصة.

(١٣) تسوخ في الطين: تقع فيه. معجم المعاني. (المجلة).

ولهـذا كانت مـن أعظم منـن الله ـ تعالى ـ التي امتـن بها على المؤمنيـن بعـد تحقيـق النصر، فقـال عز شـأنه: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (الأنفال: ١١).

شهود الملائكة غزوة بدر

لم تختلف كلمة الأمة سـلفًا عن خلف في أن الملائكة شهدت غزوة (بدر) مددًا من الله ـ تعالى ـ لنبيه محمد ﷺ وأصحابه، وهذا صريـح القرآن الكريم في قوله جل شـأنه: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (الأنفـال: ٩) أي متتابعين، يردف بعضهـم بعضًا ويأتي بعضهم فـي إثـر بعض، وفـي قولـه تعالـى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ (الأنفـال: ١٢) وقـد عنـون البخـاري فـي صحيحه لذلـك في كتـاب المغازي، فقال: باب في شـهود الملائكة بدرًا، ثـم ذكر تحت هذا العنـوان الحديث المسـتفيض، فقال: حدثني إسـحاق بن إبراهيم، أخبرنا جرير، عن يحيى بن سعيد، عن معاذ بـن رفاعة بن رافع الزرقي، عن أبيه ـ وكان أبوه من أهل بدر ـ قال: جـاء جبريل إلى النبي ﷺ، فقال: ما تعـدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين» أو كلمة نحوها: قال: كذلك من شهد بدرًا من الملائكة.

ثـم ذكر البخـاري حديثًـا آخر في هـذا الباب وهـو صريح في أن جبريل عليه السـلام شـهد بدرًا في أهبة الحرب قال البخاري: حدثني إبراهيم بن موسـى، أخبرنا عبد الوهاب، حدثنا خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب»، وهذان الحديثان أصح ما في الباب.

وقـد أورد ابن حجر في (الفتح) والسـيوطي في (الدر) جملة أحاديث بأسانيد صالحة، كلها صريحة في شهود الملائكة بدرًا.

فالقرآن والسـنة، وإجماع الصحابة، بل إجماع الأمة قبل ظهور شـذوذ المخالـف أدلـة قاطعـة علـى أن الله ـ تعالى ـ أكرم رسـوله محمدًا ﷺ وأصحابه الذين شـهدوا واقعة غزوة بدر ـ وهم قلة في عددهـم وضعف في عدتهم المادية بالنسـبة لحشـود أعدائهم من المشـركين ـ بإنزال ملائكته مددًا لهم في أول وأعظم غزوة قتالية بعـد إذ أراهـم فضله عليهم بنقلهـم من تأثرهم بتراث الرواسـب الجاهلية المغللة بالأسـباب المادية من كثـرة العدد وتوافر العدة والعتـاد إلى مجال القـوة المعنوية التي تسـتمد عناصرها من قوة الإيمان، وإدخالهم في رياض آياته ـ تعالى ـ وسننه الخاصة التي لا تخضع لتحكمات القوة المادية ومدركات العقول ومألوف الحياة في نظامها العام.

لهـذا كان مـن أعجب وأغرب مـا رأيناه في هـذا المقام ما نقل عن الإمام الشـعبي، وحكاه ابن عطية في تفسـيره، ونقله عنه أبو حيان في (بحره) من قوله: لم يمد المسلمون بالملائكة يوم بدر،

وكانت الملائكة بعد ذلك تحضر حروب رسول الله ﷺ، وهي تحضر حروب المسلمين إلى يوم القيامة.

ونحن نستبعد جدًا صحة هذا النقل عن الإمام الشعبي، وهو أحد أعلام التابعين المرجوع إليهم في السنة النبوية وروايات أحاديثها وأحداثها ووقائعها.

والقرآن الكريم صريح في إثبات شهود الملائكة وحضورهم غزوة بدر، وأن الله ـ تعالى ـ أنزلهم استجابة لاستغاثة رسول الله ﷺ واستغاثة أصحابه، وطلبهم من الله ـ تعالى ـ مددًا من غيبه إنجازًا لوعده إياهم بنصره لهم على أعدائهم الذين أقبلوا إليهم في غرو فاجر، وصلف مستكبر كفور، يحادون الله ورسوله، ويتحرقون غيظًا على المجتمع المسلم، يريدون استئصاله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون.

ولا ندري ماذا يقول الناقلون لهذه القولة الشاذة عن الإمام الشعبي -إن صح نقلهم عنه- وهي قولة تعارض نص القرآن وصحيح السنة وإجماع الصحابة في فهم الشعبي وتأويله للنصوص المثبتة شهود الملائكة غزوة بدر مددًا من الله ـ تعالى ـ لرسوله ﷺ ولأصحابه المجاهدين؟ وهذه النصوص واردة مورد الامتنان والإخبار الذي أريد به تثبيت المؤمنين وتقوية عزائمهم وتبشيرهم بالنصر الذي وعدهم الله به.

كما هو صريح قول الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ وهذا إخبار قاطع لا يحتمل التأويل، لأنه مرتب على استغاثة رسول الله ﷺ واستغاثة أصحابه.

روى مسلم في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب قال: فلما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاث مئة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مدَّ يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتِ ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض».

فما زال يهتف بربه مادًا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (الأنفال: ٩) فأمده الله ـ تعالى ـ بالملائكة.

قال أبو عبد الله القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن): فتظاهرت السنة والقرآن على ما قاله الجمهور والحمد لله.

بل ذهب كثير من المفسرين وأهل السير أن المستغيث هو رسول الله ﷺ وإنما جاء التعبير عن استغاثته ﷺ بواو الجمع تعظيمًا لقدره المنيف، وإبانة عن بلوغه في استغاثته ربه مبلغًا فاق كل استغاثة تصدر من فرد، وكأنما استغاثته ﷺ معبرة عن خوالج جميع المؤمنين متعاونين عليها بقلوبهم وأرواحهم وألسنتهم.

ثم ماذا يقول الناقلون لهذه القولة الشاذة عن الإمام الشعبي في فهمه وتأويله لأخت هذه الآية الكريمة في الامتنان على المؤمنين بإمدادهم بمدد الملائكة، وهي قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ

كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾ والآيتان من سورة الأنفال وهي سورة بدرية بإجماع، فالآيتان بدريتان، وهما صريحتان في إنزال الملائكة مددًا للمؤمنين في غزوة بدر؟

النقل عن الشعبي مضطرب إذ كيف يمكن أن ينكر الشعبي شهود الملائكة بدرًا ولكنها تشهد حروب المسلمين؟

ومما هو أدخل في العجب والغرابة، وأدعى لاستبعاد نقل هذه القولة الشاذة عن الإمام الشعبي أن الناقلين عنه يضمون إليها أن الشعبي قال: «وكانت الملائكة بعد ذلك تحضر حروب رسول الله ﷺ مددًا، وهي تحضر حروب المسلمين إلى يوم القيامة»، فمن أين للشعبي أو غيره نفي حضور الملائكة مددًا لرسول الله ﷺ وأصحابه في بدر مع صراحة النصوص المثبتة لهذا الحضور؟ ومن أين للشعبي أو غيره إثبات حضور الملائكة حروب رسول الله ﷺ بعد غزوة بدر، ولا نص يثبت ذلك من قرآن أو سنة؟ ومن أين للشعبي أو غيره إثبات حضور الملائكة حروب المسلمين إلى يوم القيامة؟ وهذا مما لا مدخل فيه للرأي والاجتهاد؟

وقد أورد القرطبي ما نُسب إلى الشعبي بما يفيد أن إمداد الله - تعالى - نبيه ﷺ وأصحابه بالملائكة إنما كان يوم أحد لا يوم بدر، أخذًا من آيتي سورة آل عمران، ولم يتعرض لآية الأنفال، وهي مصبّ الإمداد في بدر.

قال القرطبي وهو يذكر غزوات النبي ﷺ: ثم غزوة بدر الكبرى، وهي أعظم المشاهد فضلًا لمن شهدها، وفيها أمدَّ الله بملائكته نبيه ﷺ والمؤمنين في قول جماعة العلماء، وعليه يدل ظاهر الآية لا في يوم أحد.

ومن قال: إن ذلك كان يوم أحد جعل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ (آل عمران: ١٢٣) إلى قوله «تشكرون» اعتراضًا بين الكلامين، هذا قول عامر الشعبي، وخالفه الناس.

الظاهر عند المتأمل أن الإمام الشعبي كان كلامه في آيتي آل عمران فاشتبه الأمر على من نقل عنه فجعل الكلام في بدر:

والمتأمل في هذا السياق يفهم أن الإمام الشعبي إنما تكلم عن آيتي سورة آل عمران: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٢٤) إلى قوله تعالى: ﴿ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (آل عمران: ١٢٥).

وهذا فهم مستقيم لا يمنع منه سياق الآيتين بعد قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ إلى قوله ﴿ تَشْكُرُونَ ﴾ الذي جاء تذكيرًا بنعمة النصر في بدر مع قلة عدد المؤمنين وضعف عدتهم، والسياق في آل عمران لغزوة أحد، فمجيء آيتي الإمداد بالملائكة في البين من قصة أحد محتمل أن يكون منها[١٤]، والإمداد كان فيها، ومحتمل لأن يكون من الامتنان بنعمة النصر في بدر، وقع في البين من قصة أحد، تنبيهًا للمؤمنين أنهم لو صبروا وأطاعوا أمر رسول الله ﷺ لم يُهزَموا كما لم يهزموا في بدر مع قلة العدد وضعف العدة، لأن النصر بيد الله - تعالى - ينزله على من يشاء، وكيف يشاء؛ لأنه عزيز لا يغالب، حكيم يضع الأمور بتدبيره وحكمته في مواضعها من مواقع علمه المحيط بالأسباب والمسببات.

(١٤) المراد بقوله (في البين من قصة) كذا في أعقابها. (المجلة)

وحينئذ يكون الإمام الشعبي غير متعرض في كلامه للإمداد بالملائكة في يوم بدر، فضلًا عن إنكاره كما حكاه عنه ابن عطية، وكل ما يعطيه كلامه كما جاء في سياق القرطبي أنه يذهب إلى أن آيتي الإمداد في آل عمران أُحديَّتان وليستا بدريتين، وهذا لم ينفرد به الشعبي، وهو محتمل كما بيناه.

ومن الغريب أن القرطبي ساق كلامًا عن الشعبي في الإمداد بالخمسة الآلاف في قصة كرز بن جابر الفهري، يتعارض مع سياق ابن أبي شيبة الذي صحح الرواية عن الشعبي، وقد جاء فيه أن كرزًا لما بلغته هزيمة المشركين ببدر جبن فلم يمد المشركين [بما وعدهم به]، ولم يمد الله المؤمنين بالخمسة الآلاف.

قال القرطبي: قال الشعبي: بلغ النبي ﷺ وأصحابه أن كرز بن جابر المحاربي -وهو الفهري في رواية ابن أبي شيبة- يريد أن يمد المشركين فشق ذلك على النبي ﷺ وعلى المسلمين، فأنزل الله ﴿ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (آل عمران: ١٢٤، ١٢٥). فبلغ كرزًا الهزيمة فلم يمدهم ورجع فأمدهم الله بالخمسة الآلاف، وكانوا قد أمدوا بألف.

ولعل الشبهة دخلت على من نقل هذه القولة الشاذة، سواء أكان ابن عطية أم غيره من المتقدمين والمتأخرين من حديث

ابن أبي شيبة عن الشعبي بسند صحيح إليه: قال: إن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر الفهري يمد المشركين فشق عليهم، فأنزل الله ﴿ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ قال الشعبي: فبلغت الهزيمة -أي هزيمة المشركين في بدر- كرزًا فلم يمد المشركين، ولم تمد المسلمون بالخمسة.

فهذا الكلام المروي عن الشعبي بسند صحيح إليه -كما يقول الزرقاني في شرح المواهب- قد يكون هو الذي أدخل الوهل على من لم يتأمل في سياقه[١٥]، فبدر إليه الوهم ففهم خطأ في قول الشعبي: ولم تمد المسلمون بالخمسة ما جاء مبتورًا في الكلام الذي ساقه أبو حيان منسوبًا إلى ابن عطية ومحكيًا عن الشعبي.

نقل الرازي الإجماع على شهود الملائكة بدرًا:

وممن نقل إجماع المفسرين وأهل السير على شهود الملائكة غزوة بدر مددًا للنبي ﷺ ولأصحابه استجابة لاستغاثتهم الإمام الرازي في تفسيره (مفاتيح الغيب) إذ قال: أجمع المفسرون وأهل السير على أن الله -تعالى- أنزل الملائكة يوم بدر، ثم قاتلوا الكفار.

وكلام الرازي متضمن لقضيتين، الأولى: قضية إنزال الملائكة يوم بدر، وهي قضية مسلَّمة أجمع عليها أهل العلم من ذوي الشأن في العلم بالسنة وأحداثها، ودلت عليها آيات الإمداد في سورتي

---

(١٥) الوهل والوهم بمعنى واحد.(المجلة)

الأنفال وآل عمران، والعديد من الأحاديث والآثار والتي تشبه أن تكون في كثرتها متواترة الدلالة على المطلوب.

أما القضية الثانية: فهي أن الملائكة قاتلوا الكفار يوم بدر وهي قضية اختلف فيها أهل العلم من السلف والخلف، فلا ينسحب عليها ما ذكره الرازي من إجماع المفسرين وأهل السير.

وقد ذكر الرازي إنكار أبي بكر الأصم إنزال الملائكة مددًا للمؤمنين، وذكر احتجاجه لإنكاره بأربع حجج، ثلاثة منها منصبة على إنكار مباشرة الملائكة القتال، والرابعة ظاهرها في إنكار نزول الملائكة، وهذا ما يجب رده وعدم قبوله، وكذلك صنع الإمام الرازي، فقال: الحجة الرابعة أن هؤلاء الملائكة الذين نزلوا إما أن يقال إنهم كانوا أجسادًا كثيفة أو لطيفة، فإن كان الأول وجب أن يراهم الكل، وأن تكون رؤيتهم كرؤية غيرهم، ومعلوم أن الأمر ما كان كذلك، وإن كانوا أجسامًا لطيفة دقيقة مثل الهواء لم يكن فيهم صلابة وقوة، ويمتنع كونهم راكبين على الخيول.

قال الرازي: واعلم أن هذه الشبهة إنما تليق بمن ينكر القرآن والنبوة، أما من يقرُّ بهما فلا يليق به شيء من هذه الكلمات، فما كان يليق بأبي بكر الأصم إنكار هذه الأشياء مع أن نص القرآن ناطق بها، وورودها في الأخبار قريب من التواتر! وردُّ الرازي على الأصم مسلَّمٌ في إنكاره نزول الملائكة مددًا للمؤمنين في بدر، أما قضية أن الملائكة قاتلت الكفار فهي موضع نزاع بين العلماء، فلا ينسحب عليها حكم الإجماع الذي زعمه الرازي، على أن رد الرازي على الأصم مجمل ولا يخلو عن ضعف كما ألمح

إلى ذلك صاحب المنار؛ لأن الأصم أهدر أن المقام مقام إعجاز، فحكَّم المألوف والعقل، ولم يقم للأحاديث الصحيحة التي رُئيت فيها الملائكة في صور بشرية، وأجل هذه الأحاديث صحة ومعنى حديث جبريل المشهور، وقول النبي ﷺ فيه: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» بعد أن ذهب ولم يعرفه أحد من الصحابة.

ومما يؤيد قول جمهور العلماء بإنزال الملائكة مددًا للمؤمنين في بدر أن قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ (آل عمران: ١٢٤-١٢٦) نزل في غزوة بدر، كما هو قول جمهور العلماء.

وسياق هذه الآيات يرجح بدريتها، لأنها جاءت في ترتيب التلاوة معاقبة لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قال أبو حيان في (البحر): ظاهر هذه الآيات اتصالها بما قبله وأنها من قصة بدر، وهو قول الجمهور، فيكون (إذ) معمولًا لنصركم، ثم قال أبو حيان: وقيل: هذا من تتمة قصة (أحد) فيكون قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ معترضًا بين الكلامين لما فيه من التحريض على التوكل والثبات للقتال.

وقد ذكر الإمام ابن القيم في (الهدي) الخلاف، وحجج الفريقين، ولم يرجح قولًا على قول، قال: فإن قيل: هاهنا -أي في

سورة الأنفال- ذكر أنه أمدَّهم بألف، وفي سورة آل عمران قال: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ فكيف الجمع بينهما؟ قيل: اختلف في هذا الإمداد الذي بثلاثة آلاف، والذي بخمسة آلاف على قولين:

أحدهما: أنه كان يوم (أُحد) وكان إمدادًا معلقًا على شرط، فلما فات الشرط فات الإمداد، وهذا قول الضحاك، ومقاتل، وإحدى الروايتين عن عكرمة.

والثاني أنه كان يوم بدر، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة والرواية الأخرى عن عكرمة، واختاره جماعة من المفسرين.

وحجة هؤلاء أن السياق يدل على ذلك، فإنه سبحانه قال: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ﴾ (آل عمران: ١٢٣- ١٢٦).

قال هؤلاء: فلمَّا استغاثوا أمدَّهم بتمام ثلاثة آلاف، ثم أمدهم بتمام خمسة آلاف لما صبروا واتقوا، وكان هذا التدرج ومتابعة الإمداد أحسن موقعًا، وأقوى لنفوسهم، وأسرَّ لها من أن يأتي مرة واحدة، وهو بمنزلة متابعة الوحي ونزوله مرة بعد مرة.

وقالت الفرقة الأولى: القصة في سياق أحد، وإنما أدخل ذكر

بدر اعتراضًا في أثنائها، فإنه سبحانه قال: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (آل عمران: ١٢١، ١٢٢) ثم قال: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فذكر نعمته عليهم لما نصرهم ببدر وهم أذلة، ثم عاد إلى قصة أحد، فأخبر عن قول رسوله لهم: ﴿ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ ثم وعدهم أنهم إن صبروا واتقوا، أمدهم بخمسة آلاف، فهذا من قول رسوله، والإمداد الذي ببدر من قوله تعالى، وهذا بخمسة الآلاف وإمداد بدر بألف، وهذا معلق على شرط، وذلك مطلق.

والقصة في سورة آل عمران هي قصة أُحد مستوفاة مطولة، وبدر ذكرت فيها اعتراضًا، والقصة في سورة الأنفال قصة بدر مستوفاة مطولة، فالسياق في آل عمران غير السياق في الأنفال.

يوضح هذا أن قوله: ﴿ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا ﴾ وقد قال مجاهد: هو يوم أحد، وهذا يستلزم أن يكون الإمداد المذكور فيه، فلا يصح قوله: إن الإمداد بهذا المدد كان يوم بدر، وإتيانهم من فورهم هذا يوم أحد.

ونقف مع الإمام ابن القيم عند قوله في الموازنة بين أدلة الفريقين: فهذا -أي قوله تعالى: ﴿ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ ﴾- من قول رسوله، والإمداد الذي ببدر من قول الله تعالى، لنتفهم ما معنى قول ابن القيم: هذا من قول رسول الله،

والإمداد ببدر من قول الله تعالى، والآيات في إمداد بدر، بألف، وفي الإمداد المختلف فيه بين بدر وأحد كلها من قول الله تعالى، وهي قرآن متحدًّى به، متعبَّد به، نزل به أمين الوحي جبريل عليه السلام على محمد رسول الله ﷺ ليبلغه لأمته؟ فقول الله - تعالى - في سورة آل عمران: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم ﴾ لا بد أن يكون الأمر فيه بالتبليغ، والمعنى: اذكر لأصحابك مبلغًا لهم نعمتنا عليهم إذ تقول لهم مبشرًا ومنشطًا بوحينا إليك، حاكيًا لهم تنزيلنا عليك (ألن يكفيكم - في الفوق على أعدائكم أن يمدكم ربكم - زيادة على ما أمدكم به من ألف مردفين بتمام (ثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) فهو قول الله - تعالى - قطعًا كقوله: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ على سواء، وليس لرسول الله ﷺ فيه إلا التبليغ، ثم وعدهم إن هم صبروا واتقوا أمدهم بتمام خمسة آلاف مسوّمين.

وهل مثل هذا يمكن أن يكون بمحض الاجتهاد من رسول الله ﷺ؟ أو أنه من الأمور التي لا مدخل فيها قط للاجتهاد، بل لا بد فيها من الوحي عن الله تعالى، أن يقول الرسول ﷺ لأصحابه بإخبار الله له ما حكاه عنه في صدر الامتنان والتثبيت، وإزالة ما مسّهم من طائف الوحشة لملاقاة أعدائهم، وتذكيرهم نعم الله عليهم ليقوموا بحق شكر هذه النعم التي لم تجر على مقتضى ربط المسببات بأسبابها طبقًا لنواميس السنن الكونية العامة في مجرى الأحداث، ولكنها جرت بمحض فضل الله دون أن تُعرَف لها عندهم أسبابٌ مألوفةٌ في مدارك العقل ومألوف الحياة في نظامها العام.

وإذا صح أن يَعِدَ رسول الله ﷺ أصحابه تثبيتًا لهم وإخبارًا بموعود الله له بالنصر مع قلة عدد أصحابه وضعف عدتهم بأن الله سيمدهم بمدد من عنده، يبدد كثرة أعدائهم ويذهب بقوتهم المادية استجابة لاستغاثته واستغاثتهم، فهل يملك رسول الله ﷺ باجتهاده أن يعين أن هذا المدد يكون من الملائكة، فيخبر به أصحابه؟ أو لا بد في هذا التعيين بأن هذا المدد من الملائكة من وحي الله له بذلك؛ لأن جنود الله التي يمد بها عباده المؤمنين لينصرهم على أعدائهم لا تقتصر على الملائكة ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾.

وهل يملك رسول الله ﷺ تحديد عدد المدد بثلاثة آلاف، ثم بخمسة آلاف إن تحقق شرط الصبر والتقوى؟

وإذا كان لا بد في كل ذلك من الوحي -وهو الواقع الذي يجب المصير إليه- كان ما أمر الله به رسول الله ﷺ أن يقوله لأصحابه في قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ هو قول الله - تعالى - مثل قوله جل شأنه:

: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ على سواء.

غاية ما في الأمر أن الإمداد بألف المردفين إخبار من الله -تعالى- بأنه استجاب لهم استغاثتهم فأمدهم بها، وأن الإمداد بتمام هذه الألف ثلاثة آلاف، ثم إتمام هذه الثلاثة خمسة آلاف إن هم حققوا شرط الصبر والتقوى وعد من الله -تعالى- أوحاه إلى رسوله ﷺ ليبلغه إلى أصحابه بأسلوب تقريري يغسل ما ألمَّ بصدورهم من حالة تشبه اليأس، ليستعيدوا ثباتهم ويستشعروا سمو مكانة رسول الله ﷺ عند ربه، ويعرفوا رفيع منزلته وحفاوة الله به، ورعايته في هذا الموقف الآزم بما لا يمكن أن يقدر على إبداعه أحدٌ إلا الله -تعالى- في عظيم اقتداره ومحكم تدبيره، فحقق لهم على أعدائهم -وهم أكثر عددًا وأقوى عدة منهم؛ ولهذا كانوا يتهيبون لقاءهم في الحرب- نصرًا قويًا قاهرًا غلابًا، تردد صداه في آفاق أرض العرب قاصيها ودانيها، فأرعب قلوبهم، وأذل استكبارهم، وطامن غرورهم، إذ قتل فيه صناديدهم وأشرافهم، وأرغم معاطس طواغيتهم، وشغلهم عن (لا) و(نعم)، وأذهلهم عن أنفسهم، وكسر شوكتهم، وغمز قناتهم، وزلزل أقدامهم، وأرجف الأرض من تحتهم، وبدلهم بأمنهم فزعًا، وبصلفهم انكسارًا، وبعتوهم مهانة وهوانًا، وارتفعت به رءوس المؤمنين شامخة، وتثبتت أقدامهم راسخة، وأصبحوا سادة الموقف، وربابنة سفائنه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

هل باشرت الملائكة القتال مع المؤمنين في بدر أو غيرها؟

الاختلاف في مباشرة الملائكة القتال مناصرة للمؤمنين في غزواتهم مع رسول الله ﷺ أشد وأوسع مدى من الاختلاف في أصل نزولهم مددًا، وشهودهم المعارك لتثبيت المؤمنين، وتبشيرهم بالنصر لتقوى عزائمهم وتشتد سواعدهم.

وقد حققنا قضية إنزال الملائكة وإمداد المؤمنين بأعدادهم، وحضورهم مشاهد القتال في غزوة بدر، وبينا أن نزولهم مددًا للمؤمنين في بدر أشبه بأن يكون مجمعًا عليه من سلف الأمة وخلفها، وأن ما وقع من النقل عن بعض الأئمة من إنكار لنزول الملائكة وإمداد جند الله من المؤمنين بأعدادهم كان إما من قبيل الشذوذ في النقل، واشتباه النصوص واضطراب الروايات، وذلك كالقولة المنسوبة إلى الإمام الشعبي، أو كان من قبيل غلبة الأوهام على منطق العقل، والوقوف مع الأسباب والمسببات التي تحكمها السنن العامة في وقوع الأحداث، وذلك كالذي حكاه الرازي عن أبي بكر الأصم، واحتج له بما لا حجة له فيه.

مباشرة الملائكة القتال في بدر على سبيل الإعجاز رأي جمهور العلماء، وظاهر القرآن وصريح السنة:

أما قضية مباشرة الملائكة القتال في صفوف المؤمنين، وهي متفرعة على ثبوت نزولهم وإمداد المؤمنين بهم، وشهودهم المعارك، فقد اختلف فيها العلماء والباحثون من المفسرين وأهل

السير، فقال قوم وهم الأكثرون وجمهور أهل العلم: إن الملائكة أنزلوا مددا للمؤمنين وباشروا القتال معهم، وقتلوا آحادا من الكافرين، وأسروا أفرادًا منهم. كما ورد في حديث أسر العباس، واستدل هؤلاء بظواهر آيات القرآن الكريم، وبآثار وروايات كثيرة عن الصحابة الذين شهدوا بدرًا أو حدثوا عمن شهدها.

وقال آخرون: إن الملائكة أنزلوا مددًا للمؤمنين في بدر، وشهدوا معركتها، ولكنهم لم يباشروا القتال، بل كان إنزالهم لتكثير سواد المسلمين، وتثبيتهم بما يلقونه في قلوبهم إلهامًا من بشائر النصر، وتقوية عزائمهم، وأن الله تعالى ناصر نبيه وأصحابه على جند الشيطان وأوليائه من أحلاس الشرك وعبيد الوثنية، لتقوى نفوس المؤمنين وعزائمهم ويجترئوا على أعدائهم في القتال، ولم تنزل لتباشر القتال، ولو كان إنزالهم للقتال لكان في وجود ملك واحد يقاتل مع المؤمنين كفاية لتحقيق النصر، وهزيمة الكافرين، بل لإهلاكهم إهلاكًا تامًا، فضلاً عن جبريل عليه السلام الذي وصفه الله في كتابه المبين بأنه شديد القوى، ذو مرة، والذي تقول الروايات المشتهرة أنه اقتلع قرى قوم لوط من أصولها في الثرى، وحملها على ريشة من جناحه بمن فيها، وما فيها من أناسي وحيوان، وبيوت وشجر وزرع وأمتعة حتى بلغ بها آفاق السماء، وذرى الفضاء، ثم قلبها، فجعل أعاليها أسافلها، وصاح بثمود وهي في ديارها صيحة واحدة جعلتهم كالرميم.

إنكار قتال الملائكة مع المؤمنين صرف لظواهر النصوص عن منازلها بغير موجب:

وذهب أصحاب هذا الرأي في تأويل آيات الإمداد بالملائكة تأويلات صرفتها عن ظواهرها بغير ضرورة موجبة مما شتت الضمائر في أسلوب الآيات.

وقد ذكر أبو حيان في تفسيره (البحر) وجوها في نظم قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال: ١٢) ليجعل قوله تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ خطابًا للمؤمنين عن طريق الملائكة، على معنى: قولوا لهم: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ وليتسنى جعل قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا﴾ خطابًا تعليميًا للمؤمنين، يعلمهم طريقة ضرب الكافرين لقتلهم أو تعجيزهم عن القتال، وهي وجوه يكنفها التعسف وتشتيت الضمائر مما يخل بالبراعة البيانية في القرآن الكريم.

والحامل على هذا التعسف هو الفرار من إثبات مباشرة الملائكة القتال في صفوف المؤمنين اعتمادًا على قصص لا تستند على سند صحيح، وغفلة عن مقام الأحداث والوقائع، وهي أحداث إعجازية، لها سننها وقوانينها الخاصة التي لا يلزمها التقيد بحال من الأحوال، ولا تخضع لنظام السنن الكونية العامة التي تحكمها قوانين الأسباب والمسببات، وإنما مرجعها إلى إطلاق مشيئة الله واقتداره وحكمة تدبيره.

وقد ذكر الرازي في تفسيره أن الملائكة نزلت في بدر، وقاتلت الكفار وقال: أجمع أهل التفسير والسير أن الله تعالى أنزل الملائكة يوم بدر وأنهم قاتلوا الكفار، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم تقاتل الملائكة سوى يوم بدر، وفيما سواه كانوا عددًا ومددًا، لا يقاتلون ولا يضربون، وهذا قول الأكثرين، بيد أن الرازي الذي ينقل هذا الإجماع عن ذوي الشأن من المفسرين وأهل السير لم يقم لنقله وزنًا، وذهب مع الذين يزعمون أن الملائكة نزلت مددًا للمؤمنين ولكنها لم تنزل لتقاتل، بل نزلوا لتقوية عزائم المؤمنين، ولكنه لمح وهو يذكر اختلاف العلماء في مباشرة الملائكة القتال إلى أنهم لم يقاتلوا مستندًا إلى أن لفظ المدد الذي وصف به الملائكة مشعر بالمعاونة في القتال، فقال في تفسير آيتي آل عمران: اختلفوا في كيفية نصرة الملائكة فقال بعضهم: بالقتال مع المؤمنين، وقال بعضهم: بل بتقوية نفوسهم، وإشعارهم بأن النصر لهم، وإلقاء الرعب في قلوب الكفار.

ثم قال الرازي: والظاهر في المدد - أي في مفهومه اللغوي والعرفي - أنهم - أي الملائكة الذين نزلوا مددًا للمؤمنين - يشاركون الجيش في القتال إن وقعت الحاجة إليهم، ويجوز أن لا تقع الحاجة إليهم في نفس القتال، وأن يكون حضورهم كافيًا في تقوية القلب، وزعم كثير من المفسرين أنهم قاتلوا يوم بدر، ولم يقاتلوا في سائر الأيام.

وقول الرازي: إن وقعت الحاجة إليهم، مؤذن بأنهم قاتلوا في يوم بدر لأن الحاجة إلى مشاركتهم للمؤمنين بالقتال معهم كانت في بدر واقعة وماسة، تدعو إليها ضرورة الموقف إذ كان

عدد المؤمنين قليلاً، وكانت عدتهم ضعيفة إلى جانب عدد أعدائهم وقوتهم المادية التي كانت وافية وافرة، وكان الخوف من ملاقاتهم وهم في هذا العدد والعدة مستوليًا على بعض المؤمنين الذين خرجوا مع النبي ﷺ وهم كارهون للقتال، فكانت الحاجة داعية إلى تطلع المؤمنين أن يمدهم الله بمدد من عنده، فاستغاثوه مع رسول الله ﷺ، فاستجاب لهم ووعدهم بإمدادهم بألف من الملائكة، وقد دلت الآثار على أن الملائكة نزلوا في صور بشرية، ليأنس بهم المؤمنون وتقوى عزائمهم، وتطمئن قلوبهم إلى نصر الله وعونه.

أما أوهام أبي بكر الأصم وتخيلاته التي تشبث بها في إنكاره نزول الملائكة وقتالهم الكفار مع المؤمنين كما حكاها عنه الرازي فهي أوهام واهية، وتخيلات متهافتة، لأن الملائكة لم ينزلوا في صورهم وهيئاتهم التي خلقهم الله عليها، ولم يقاتلوا بقواهم الملائكية، وإنما نزلوا وقاتلوا بقوى بشرية تأنيسًا للمؤمنين، وتقوية لعزائمهم كما تدل عليه الآثار الكثيرة.

والمؤمنون عرفوا نزول الملائكة بإخبار النبي ﷺ لهم عن الله تعالى، وعرفوا قتالهم معهم بمشاهدة آثار هذا القتال، ورؤيتهم لآثار ضرب الملائكة للكفار، ومخالفة ذلك لآثار قتال المؤمنين، وسماعهم أصوات آلات ضرب الملائكة وتحريضهم كما في حديث: «أقدم حيزوم» الذي أخرجه مسلم في صحيحه من طريق عكرمة بن عمار، عن أبي زميل، عن ابن عباس قال: بينا رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس: أقدم حيزوم، إذ نظر إلى المشرك

أمامه قد خر مستلقيًا، فنظر إليه، فإذا هو خطم أنفه وشق وجهه ... فجاء الأنصاري فحدث ذاك رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة» [رواه مسلم برقم ١٧٦٣].

ثم أعاد الرازي ذكر الخلاف في قتال الملائكة في سورة الأنفال، فقال: اختلفوا في أن الملائكة هل قاتلوا يوم بدر؟ فقال قوم: نزل جبريل عليه السلام في خمس مئة ملك على الميمنة، وفيها أبو بكر، وميكائيل في خمس مئة على الميسرة، وفيها على بن أبي طالب في صورة الرجال عليهم ثياب بيض وقاتلوا.

ثم قال الرازي: وقال آخرون: لم يقاتلوا، وإنما كانوا يكثرون السواد، ويثبتون المؤمنين، وإلا فملك واحد كاف في إهلاك الدنيا كلها، ثم ساق الرازي قصة حمل جبريل قرى قوم لوط بريشة من جناحه، وإهلاكه بلاد ثمود بصيحة واحدة منه.

ثم خرج الرازي من التلميح إلى التصريح برأيه في أن الملائكة لم تقاتل في يوم بدر، ولا في غيره من الغزوات، فقال: والذي يدل على صحة أن الملائكة ما نزلوا للقتال قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ ﴾ (آل عمران: ١٢٦) قال الفراء: الضمير – أي في جعله – عائد إلى الإرداف، والتقدير: ما جعل الله الإرداف إلا بشرى، وقال الزجاج: ما جعل الله المردفين إلا بشرى، وهذا أولى لأن الإمداد بالملائكة حصل للبشرى، قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يوم بدر في العريش قاعدًا يدعو، وكان أبو بكر قاعدًا عن يمينه ليس معه غيره، فخفق رسول الله ﷺ خفقة أخذته فيها سِنَة، ثم ضرب

بيمينه على فخذ أبي بكر، وقال: «أبشر بنصر الله، ولقد رأيت في منامي جبريل يقدم الخيل» قال الرازي: وهذا يدل على أنه لا غرض من إنزالهم إلا حصول البشرى، وذلك ينفي إقدامهم على القتال.

وقد أكد الرازي رأيه في أن الملائكة لم تنزل للقتال، وأنها لم تقاتل فقال: أما قوله تعالى: ﴿ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ ﴾ ففيه وجهان: الأول أنه أمر للملائكة، متصل بقوله تعالى: ﴿ فَثَبِّتُواْ ﴾ وقيل: بل أمر للمؤمنين، وهذا هو الأصح لما بينا أنه تعالى ما أنزل الملائكة لأجل المقاتلة والمحاربة.

والمتأمل في كلام الرازي أولاً وآخراً في آيات الإمداد بالملائكة في سورتي آل عمران والأنفال يرى أن هذا الكلام لا يخلو من تضارب واضطراب، وأن الرازي جنح إلى التعسف في تأويل آية ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ ﴾ فانتزع الخطاب بقوله تعالى: ﴿ فَٱضْرِبُواْ ﴾ من سياقه القرآني المقتضي لوحدة الخطاب في الآية الواحدة ما لم تقم الدلائل على غير ذلك، والرازي جعل هذا الخطاب للمؤمنين، ولا يخفى ما في ذلك من تشتيت ضمائر الآية الواحدة في سياقها والقصد من إنزالها.

والرازي في سبيل تأييد رأيه بأن الملائكة لم تنزل للقتال والمحاربة يجعل القصر في قوله: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ ﴾ قصرًا ينفي إرادة القتال من إنزال الملائكة بترجيحه رأي الزجاج على رأي الفراء في مرجع الضمير في قوله (جعله) وسياق الآية يوحي بترجيح رأي الفراء لاتساقه مع سياق الآية.

رأي الطبري وتمسكه بحرفية النص القرآني:

وقد نهج الإمام أبو جعفر الطبري نهجًا اعتصم فيه بظاهر القرآن، ولم يرجح رأيًا على رأي من آراء القائلين بالإمداد بما زاد على الألف المثبتة في سورة الأنفال، أو القائلين بعدم الإمداد فيما زاد على ألف الأنفال مما ذكر في آيتي آل عمران.

ولم يعول الطبري على ما ذكره الأثريون من الأحاديث والآثار المثبتة أو النافية، فقال بعد أن ذكر كثيرًا من هذه الآثار والأخبار: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر عن نبيه محمد ﷺ أنه قال للمؤمنين: «ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة» فوعدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة مددًا لهم، ثم وعدهم بعد الثلاثة آلاف خمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واتقوا الله، ولا دلالة في الآية على أنهم مُدوا بالثلاثة آلاف، ولا بالخمسة آلاف، ولا على أنهم لم يمدوا بهم.

وقد يجوز أن الله عز وجهه أمدهم على نحو ما رواه الذين أثبتوا أنه أمدهم، وقد يجوز أن يكون لم يمدهم على نحو الذي ذكره من أنكر ذلك، ولا خبر عندنا صح من الوجه الذي يثبت أنهم أمدوا بالثلاثة آلاف، ولا بالخمسة آلاف، وغير جائز أن يقال في ذلك قول إلا بخبر تقوم الحجة به، ولا خبر به كذلك، فنسلم لأحد الفريقين قوله، غير أن في القرآن دلالة على أنهم قد أمدوا يوم بدر بألف من الملائكة، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (الأنفال: ٩)، فأما يوم أحد فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبينُ منها

في أنهم أمدوا، وذلك لو أنهم أمدوا لم ينهزموا، وينال منهم ما نيل منهم، فالصواب فيه أن يقال كما قال تعالى ذكره.

وهذا الذي حكيناه عن أبي جعفر الطبري يمثل رأيه في أن الإمداد بالملائكة وقع في يوم بدر بألف منهم، أخذًا بصريح آية الأنفال ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

أما آيتا آل عمران ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ فقد جعلهما أبو جعفر الطبري من قبيل الوعد الذي لم يذكر معه ما يدل على أنه وقع أم لم يقع، وليس فيه - عند أبي جعفر - خبر يصح الاحتجاج به في وقوعه أو عدم وقوعه.

أما قتال الملائكة في صفوف المؤمنين لأعدائهم الكافرين في بدر أو غيرها فقد جنح فيه الطبري إلى أنه لم يقع، وأن تثبيت الملائكة للمؤمنين الذي أمروا به في قوله تعال: ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إنما كان بتقوية عزائمهم، وتبشيرهم بالنصر، وإلقائهم في قلوب المؤمنين بالإلهام أنهم أقوى من أعدائهم الكافرين.

وصرف أبو جعفر الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ إلى المؤمنين، فقال في تأويل قوله تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ يقول تعالى ذكره: سأرعب قلوب الذين كفروا بي أيها المؤمنون منكم، وأملؤها فرقًا حتى ينهزموا عنكم، فاضربوا فوق الأعناق.

ثم قال أبو جعفر والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أمر المؤمنين يعلمهم كيفية قتل المشركين، وضربهم بالسيف، أن يضربوا فوق الأعناق منهم، والأيدي والأرجل.

ثم قال الطبري: فالواجب أن يقال: إن الله أمر بضرب رءوس المشركين وأعناقهم وأيديهم وأرجلهم أصحاب نبيه ﷺ الذين شهدوا معه بدرًا.

الاعتراض على الطبري في تعسفه وصرفه الخطاب في المؤمنين:

والذي اعترضناه على رأي من ذهب إلى أن الخطاب في قوله: (فاضربوا) للمؤمنين من أن فيه تشتيتًا للضمائر في الآية، لا يوائم البراعة البيانية في بلاغة القرآن وارد على كلام أبي جعفر - والآية بدأت قطعًا بخطاب الملائكة بالوحي إليهم أنه تعالى معهم باقتداره وعزته وقهره، فليثبتوا المؤمنين بتبشيرهم بالنصر والعون في قتالهم للمشركين، وهي واردة مورد الامتنان على النبي ﷺ في تحقيق رغبته واستغاثته ربه أن يمد أصحابه بمدد من عنده، يحقق لهم النصر على هؤلاء الأعداء الذين يفوقونهم عددًا وعدة.

وهذا الإمداد لا يحقق الغرض منه كاملاً إلا بمشاركة المؤمنين القتال للكافرين، لأن المستغيث الذي استجاب الله له بالإمداد إنما هو النبي ﷺ وحده، كما يدل عليه حديث العريش، أو هو ﷺ ومعه أصحابه، والنبي ﷺ كان في أشد حالات المناشدة والاستغاثة وطلب المدد من الله تعالى ليقوي قلوب أصحابه ويزيل عنهم وحشة ما داخلهم إذ رأوا كثرة أعدائهم وقوة عدتهم المادية أمام قلة عددهم وضعف عدتهم، ولم يكن ﷺ في حاجة إلى تقوية قلبه بمجرد نزول الملائكة دون أن يعاونوا المؤمنين بالقتال معهم.

أما الاعتلال بأن قوة ملك واحد كافية في هزيمة من هم أكثر عددًا، وأقوى عدة من الكفار أضعافًا مضاعفة - فهو اعتلال يغفل عن طبيعة الموقف الذي كان فيه النبي ﷺ وأصحابه من الشدة البالغة والتأزم المستحكم، كما يصوره حديث عمر بن الخطاب عند مسلم من طريق أبي زُمَيل عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وهذا الاعتلال يقوم على فكرة خاطئة، تزعم أن الملائكة إذا قاتلت في صفوف المؤمنين إنما تقاتل بقوتها الملائكية، وهذا ما لا يلزم لزومه، لأن الملائكة مُنحوا قوة التشكل في صور بشرية أو غيرها، فما المانع أن يكون قتالهم الذي وقع منهم في معاونة المؤمنين كان على قدر ما تشكلوا فيه من صور بشرية كما تدل عليه الآثار الكثيرة، وهذا يكون أوقع في نفوس الصحابة، لأنهم رضي الله عنهم إذا رأوا رجالاً يقاتلون معهم كان ذلك آنس لهم وأشد أثرًا في شد عزائمهم وتقوية قلوبهم، وأنكى لعدوهم، لأنهم يظنون أن الذين يقتلونهم هم أصحاب محمد ﷺ، فيكون الفعل منسوبًا عندهم للنبي ﷺ وأصحابه، وهذا أقوى في الإعجاز، وأنجح في كسر شوكة هؤلاء الأعداء، وأغيظ لهم وأرعب لقلوبهم.

رأي السبكي في قتال الملائكة بصور بشرية وهو من أحسن ما ينبغي أن يقال:

وهذا ما أشار إليه الإمام السبكي في جواب سؤاله عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي ﷺ مع أن جبريل عليه السلام قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه، فقال: ذلك لإرادة أن

يكون الفعل للنبي ﷺ ولأصحابه، وتكون الملائكة مددًا على عادة الجيوش، ورعاية لصورة الأسباب وسُننها التي أجراها الله في عباده، والله فاعل الجميع.

وممن ذهب إلى أن الملائكة نزلت يوم بدر مددًا للمؤمنين وقاتلت معهم أبو عبد الله القرطبي في أحكامه، فقال: وفي بدر أمد الله بملائكته نبيه والمؤمنين في قول جماعة العلماء، وعليه يدل ظاهر الآية، وتظاهر الروايات بأن الملائكة حضرت يوم بدر، وقاتلت، ثم ساق حديث أبي أسيد مالك بن ربيعة وكان بدريًا، وساق بعده حديث عمر عند مسلم، وغيره من الأحاديث والآثار الكثيرة.

ثم قال: فتظاهرت السنة والقرآن على ما قاله الجمهور، وساق القرطبي قول من ذهب إلى أن الملائكة حضرت يوم بدر، ولكنها لم تقاتل، وعقب عليه بأن قتال الملائكة هو قول الأكثر من العلماء وأن قوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ أمر للملائكة، وضعف قول من قال: إنه أمر للمؤمنين.

وجرى العلامة البيضاوي على ترجيح أن الملائكة قاتلوا الكفار مع المؤمنين واستدل بقوله تعالى: ﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ وقوله: ﴿أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ﴾ على أن الملائكة قاتلوا مع المؤمنين.

والذي يجيل النظر بعين التفكير المتأمل في أحداث هذه الغزوة المباركة ووقائعها في مقدماتها، وإطار خطوطها التي قامت بها حتى وصلت إلى نهايتها من النصر المؤزر لجند الإيمان وكتائب المجتمع المسلم الناشئ، نصرًا بلغ ذروة الكمال، الذي

كان به أساسًا لجميع الفتوحات الإسلامية، ونشر الدعوة إلى الله الواحد الأحد في أرجاء الأرض – يدرك أن هذه الغزوة كانت تدبيرًا إلهياً أشبه بالبعث ليوم الفصل لتطبيق منهج الرسالة الخالدة في أول جهاد قتالي يعتمد على التربية السلوكية للمجتمع المسلم تربية تحمل في طياتها عوامل الخلود القائم على الكفاح الصبور، والنضال الحركي الذي يجعل من كل فرد من أفراد المجتمع المسلم لبنة تشد إليها البناء الإنساني الذي يمثل فيه المجتمع المسلم قوة التماسك بين جميع لبنات هذا البناء، بحكم وضع هذا المجتمع الاجتماعي من مكان القيادة الرائدة، والأسوة الموجهة، والقدوة الرشيدة الراشدة.

ومن ثم كانت هذه الغزوة المباركة إطارًا لصورة المجتمع المسلم في حياته الاجتماعية الشاملة لسائر أنظمة وجوده أفرادًا وجماعات، وأممًا وشعوبًا.

ومن هذا المنطلق كانت حياة المجتمع المسلم نموذجًا لمواقف الكفاح المستهدف لإقامة الإنسانية على دعائم حرية العقيدة في سياج التوحيد المنيع، وحرية التفكير في ظل الإيمان، وحرية النظام الاجتماعي القائم على أداء الواجب وأخذ الحق، بل القائم على التواسي والتراحم فيما بين أبناء البشرية أفرادًا وجماعات على سواء.

ولهذا أرخينا رَسَن القلم لينطلق على أرضها (١٦) تعرفًا لعناصر منهج الرسالة الخاتمة الخالدة، لنقيم من هذه العناصر المتداخلة

---

(١٦) الرسن الحبل والمراد أطلق للقلم بإرخاء الرسن للقلم التوسع في الكتابة عن أمر من الأمور

صـورة موحدة المعالم في مقدمتها ونهايتهـا ، حتى يتاح للقلم أن يجمع من خيوط نسجها أهم عناصر المنهج الإلهي الذي أودعه الله تعالى رسـالة محمد ﷺ مضيئة المنائر ، ليسترشد بها السالكون إلى نور الهداية بحثًا عن الحق والخير .

* * *

فرائد بدرية
الفريدة الأولى
مشهد يمثل ذروة صدق الإيمان

عمير بن الحمام أنصاري بدري ، كان أول شهيد من الأنصار في بدر ، وكان أول قتيل منهم في الإسلام في حرب ، وكان من الرعيل الأول منهـم في بنـاء المؤاخاة الإيمانية المتواسية ، القائمة على الحب في الله ، التي عقدها رسول الله ﷺ مقدمه المدينة بين الذين تبـوءوا الدار والإيمان من الأنصار ، وبين طلائع السـابقين الأولين من المهاجرين ، تلك المؤاخاة التي كانت دعامة المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعـي الجديد ، فجعلت منه قـوة إيمانية موحدة الوسائل والأهداف .

فأما عبيـدة بن الحارث فكان في بدر أحد أبطال المبارزة الذين ندبهـم النبي ﷺ اسـتجابة لدعـوة عتبة بن ربيعة الـذي تقدم إلى صفوف المؤمنين ، وحوله أخوه شـيبة بـن ربيعة ، وولده الوليد بن عتبة تظاهرًا بالشجاعة والجرأة ليرد عتبة على أبي جهل وتعييره له بالجبن حين دعا عتبة إلى المسالمة ورجوع نفير قريش عن محاربة محمد ﷺ وأصحابـه ، فأبى أبو جهل إلا الحرب ، فأخذت الحمية الجاهلية بتلابيب عتبة وقادته هو وأخاه وولده إلى حتوفهم ، فتقدم يطلب المبارزة ، ونـادى يا محمد ؟ أخرج لنا أكفاءنا من بني عمنا بعد أن برز لهم ثلاثة من البهاليل أبطال الأنصار ، فأبى عتبة إلا أن يكون مبارزوهم من بني عمهم ، من قريش .

عتبة يشعل نار الحرب ليرد على أبي جهل تعييره بالجبن:

وكانت هذه المبارزة أول شرارة قدح زندها الغرور الكفور، والعتو الجاهلي الفاجر، وبدأت المبارزة بين أبطال المجتمع المسلم الثلاثة: حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث، وبين عتبة، وأخيه شيبة، وولده الوليد، وما هي إلا جولة حتى جندل أسد الله سنانير نفير قريش، وفقاقيع نزيز البأو والطغيان(١٧) وفجار الشرك وعبيد الوثنية، وحمل عبيدة بن الحارث بعد أن اختلف مع قرنه ضربتين أثبت كل صاحبه، ولحق حمزة وعلي قرن عبيدة فذففا عليه، ثم حملا عبيدة إلى رسول الله ﷺ، فأفرشه قدمه الشريفة لتكون وسادًا حتى قضى شهيدا حميدا رضي الله عنه.

وأما عمير بن الحمام شهيد صدق الإيمان في ذروته فإنه سمع النبي ﷺ يقول، وهو يحرض المؤمنين على القتال بعد أن استيقظ من خفقته في العريش، ورأى جبريل عليه السلام متأهبًا للحرب وهو يقود فرسه، وعلى ثناياه النقع: «والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة» فقال عمير وكان واقفًا في الصف، وفي يده تمرات يأكلهن، وقد غمره الشوق إلى لقاء الله ودخول دار نعيمه

(١٧) البأو هو الزهو والافتخار والتكبر والمراد بنزيز البأو مستنقع التكبر.

وكرامته، فأنساه الدنيا ومن فيها، ولم يبق له إلا تطلعات الحب وصدق الإيمان بَخ، بَخ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم قذَف التمرات من يده، وأخذ سيفه فقاتل حتى قتل، رضي الله عنه.

وقد أخرج هذا الحديث الإمام مسلم في صحيحه عن أبي بكر بن أبي شيبة وفيه أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «لا يتقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه».

صدق الإيمان في فدائية عمير بن الحمام وشوقه إلى الجنة ورضوانها:

وتدانى الجمعان، وكادت الصفوف تختلط، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فقال عمير بن الحمام، شهيد صدق الإيمان، يستطعم قول النبي ﷺ ويستحلي مذاقه لشدة شوقه إلى الجنة، وما فيها من الرضوان الأكبر: يا رسول الله، جنة عرضها السموات!! فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقال عمير متعجبًا من عظم ما أعده الله لصادقي الإيمان من عباده المخلصين وقد هزه الوجد واستبد به الحب: بَخ بَخ!! فقال له رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قول: بَخ بَخ؟» فقالَ عمير وقد عادت إليه نفسه، وأخذه الحياء من رسولِ الله ﷺ: لا، والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، فقال له رسول الله ﷺ: «فإنك من أهلها»، فأخرج عمير من قرنه تمرات

فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة فرمى ما كان معه من التمر، وركض إلى القتال، وهو يقول منتشيًا بفرحة الأمل في الفوز برغائبه:

ركضا إلى الله بغير زاد ... إلا التقى وعمل الميعاد
والصبر في الله على الجهاد ... وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد

بحث وتحقيق لبيان ما جاء في هذه القصة من معالم منهج الرسالة:

وفاز عمير بين الحمام بتحقيق المرجو، ووجد ما وعده الله ورسوله حقًا، وألقى رحاله في ربض الجنة يتبوأ منها حيث يشاء.

وهذا لون من صدق الإيمان لا تتيحه الحياة إلا في فرائد الأحداث المتباعدة في أزمانها، ليكون درسًا في السلوك التربوي الذي يجعل من الأمة قرارًا مكينًا لأجنة يترقبها التطلع إلى النهوض الحضاري في ظل الإيمان ولائذ تتحول إلى بطولات زاكية، يرتفع بها بناء المجتمع بروابط الأمل المرجى بين فترات من الزمن متفاوتة في المدى والغاية.

وهو لون من الإخلاص للعقيدة الموحدة لا يطمع فيه مجتمع من المجتمعات الإنسانية إلا ما كان منها قائمًا على صدق الإيمان بحقائقها الغيبية كصدق الإيمان بحقائقها الشهودية.

وأول ما يلفت النظر في هذه الفريدة قوة الإيمان عند عمير، وصدق إخلاصه في الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا، فهو رجل مؤمن خالطت بشاشة الإيمان شغاف قلبه، ونشأ بهذا الإيمان في

المؤاخاة القائمة على الحب لله، وكان إخاؤه معقودًا بناصية رجل من أبطال الرعيل الأول من المهاجرين الذين شروا أنفسهم في مرضاة الله، ذلك الفرع الأشم من دوحة النبوة: عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي، وهاهو ذا عبيدة يستشهد في أول جولة من جولات المعركة البدرية، فيشهده أخوه الإيماني عمير بن الحمام مودعًا إلى الجنة، تشيعه إليها شهادة رسول الله ﷺ بقوله: «أشهد أنك شهيد».

ويغمر الشوق عميرًا، ويبرح به الوجد ليلقى أخاه عبيدة في رياض الجنة، ويسمع عمير النبي ﷺ وهو يهدي إلى سبيل الوصول للجنة، وفي يده تمرات يتبلغ بهن، وتتمثل له الجنة بنعيمها ورضوان الله فيها، وقد اتكأ على أرائكها أخوه الإيماني عبيدة بن الحارث مع من سبقه إليها من طلائع الإيمان، فيقول متعجلا الوصول إليها: لئن بقيت في هذه الدنيا لحظات آكل فيها تمراتي إنها إذن لحياة طويلة تباعد بيني وبين منازل الأحباب، ويرمي ما في يده من تمرات راكضًا إلى القتال بسيفه، ويقاتل حتى يقتل.

فأي إيمان هذا الذي وقف بعمير بن الحمام هذا الموقف الذي تعجز الحياة أن تأتي بمثله؟ وتعجز الأقلام والألسن عن تصويره؟ إنه الصدق المتسامي في ذرى الإيمان، وأي إخلاص هذا الذي امتزج في قلب عمير بهذا الإيمان فكان له بُراقا ينقله في لحظة لا يعرف لها الزمن في حسابه قدرًا إلى رياض الشهداء؟ إنه الإخلاص الذي يستحوذ على المشاعر ومداخل الحس، فلا يترك لغيره فيها مكانًا.

وعمير رضي الله عنه يأخذه العجب إذ يسمع من رسول الله ﷺ أن الطريق إلى الجنة يملكه كل مؤمن غمره الإخلاص، وهو بين يدي عمير إذا شاءه، فما بقاؤه بعيدًا عنها؟ أهذه التمرات التي يتبلغ بهن؟ فليلقها إلى الأرض فألقاها، فإذا هو شهيد يمضي ركضًا إلى الله بغير زاد إلا التقى والصبر في الجهاد.

الفريدة الثانية

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ٢٠٧)

عوف بن الحارث، أحد سبعة إخوة، أمهم عفراء بنت الحارث الأنصارية النجارية، وثالث ثلاثة أبوهم الحارث بن رفاعة النجاري، وهم: عوف، ومعاذ، ومعوذ، وهؤلاء الثلاثة عرفوا بأمهم فيقال لهم: أبناء عفراء أما الأربعة الآخرون، وهم إياس، وعاقل، وخالد، وعامر، فأبوهم البُكير بن عبد ياليل الليثي، وقد شهد سبعتهم بدرًا مع النبي ﷺ، وكان عوف أحد ستة نفر من الأنصار كانوا أول من أسلم بمكة، وهو عقبي، شهد العقبتين: عقبة الاثني عشر، وعقبة السبعين، وهي أعظم بيعات الأنصار للنبي ﷺ.

وكان مما شرف الله به عفراء بنت الحارث أن بنيها السبعة كانوا جنودًا في أول معركة خاضها المجتمع المسلم في جهاد القتال، وعُدت عفراء في المبايعات، فهي من فرائد المسلمات، اللائي حزن من المكرمات والمفاخر ما لم يكن لغيرهن في تاريخ الإسلام.

يقول الحافظ ابن حجر في (الإصابة): وعفراء هذه لها خصيصة لا توجد لغيرها، وهي أنها تزوجت بعد الحارث البكير بن ياليل، فولدت له أربعة: إياسًا، وعاقلاً، وخالدًا، وعامرًا، وكلهم شهدوا بدرًا، وكذلك إخوتهم لأمهم بنو الحارث، وانتظم من هذا أنها امرأة صاحبية لها سبعة أولاد، شهدوا كلهم بدرًا مع النبي ﷺ.

وعوف بن الحارث وأخوه معوذ هما - في رواية الواقدي - اللذان قتلا أخبث كافر أقلته الأرض: أبا جهل بن هشام، ضرباه وهو يصول في المعركة حتى أثبتاه، وتركاه في آخر رَمَق، حتى

ذفف عليه عبد الله بن مسعود، واحتز رأسه بعد أن علا صدره ووضع قدمه على عنقه، وحملها إلى النبي ﷺ، ففرح ﷺ بقتل هذا الطاغية فرحًا شديدًا، وقال لابن مسعود: «انطلق فأرنيه» فانطلق عبد الله معه ﷺ فأراه إياه مجندلاً، فقال ﷺ: «هذا فرعون هذه الأمة».

إذا ملك الإيمان قلب المؤمن أخلص لله وحده:

هذه النشأة الإيمانية التي نهد عوف بن الحارث في مهادها ومجاليها جعلت منه نموذجا للمؤمن الذي تخلل الإيمان مشاعره وإحساساته، وملأ قلبه وعقله، وأضاء جوانب روحه بنور هدايته، وشغله عن الدنيا وما فيها ومن فيها، بل شغله عن نفسه، وأذاقه حلاوة الإخلاص لله تعالى، وعرفه كماله الرباني، فعرف الله معرفة شهودية، جعلت منه عبدًا لا يرى في حياته إلا ربه، ولا يرى سعادته إلا في مرضاته، ولا يشعر بلذة إلا لذة النظر إلى وجهه الكريم، فشرى نفسه لله تعالى، فكان مثلاً أعلى لواقعية قوله عز شأنه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ فانطلقت روحه إلى منازل القرب، مستغرقة في بحار جلاله وقدس عظمته، فكان آية من آيات الله تمثل الحب الإلهي في أعلى مراتبه وأرفع درجاته، فأحبه الله تعالى، وأحب الله، وصار من الذين قال الله فيهم: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ (المائدة: ٥٤).

إذا أحب الله عبدا غرس في قلبه حبه:

وحب الله لعبده أن يستأثر به لنفسه، فيحرره إلا من عبوديته له وحده، وحب العبد لربه أن يستخلصه ربه لنفسه، فلا يرى، ولا

يسمع، ولا يحس، ولا يشعر إلا بهذا الحب، ولا يقر له قرار إلا بالله، ولله، وفي الله، فالله تعالى طلبته، ورضاؤه رغائبه.

هكذا كان عوف بن الحارث ساعة أن سمع النداء الأقدس وهو يتهيأ للرحيل على أجنحة الحب، فاتجهت نفسه إلى الخبير يستنبئه عن أقرب طريق يفضي به إلى أن يكون ذرة نورانية بين يدي المحب الحبيب، تتلألأ في آفاق اللانهائية، سابحة في فضاء الأبدية، لا ترى إلا الله في قدس جلاله الذي لا يشهده إلا المقربون.

فقال لأمين سر الربوبية ﷺ: يا رسول الله؟ ما يضحك الرب من عبده؟ ليستجلي به أقصى ما يبلغ العبد من القرب في رضاء ربه، فأجابه العليم المعلم ﷺ فقال: «غمسه يده في العدو حاسرًا» ومعنى هذا الجواب: أن يبلغ العبد في حبه لربه درجة ترتفع بها الحواجز الترابية المظلمة، ويخلع عنه جلابيب البشرية، ليصير روحانيًا خالصًا، يطير بأجنحة التقديس إلى منازل القرب التي لا تعرف الحدود والحواجز.

كان حب عوف بن الحارث لربه حبا فدائيا ابتغاء مرضاته:

وفهم عوف الرمز، فباع نفسه لبارئها، ونزع درعًا كانت عليه، فرمى بها، وخلص روحًا نورانيًا، ثم ركض إلى الله حتى بلغ منازل الأحباب، واستقر في خدورها نورًا يضيء لمن يريد.

هذه القصة ذكرها ابن إسحاق، ونقلها عنه الحافظ ابن كثير في البداية، وعز الدين بن الأثير في (أسد الغابة) وابن حجر في الإصابة.

قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر، عن قتادة قال: لما

التقى الناس يوم بدر قال عوف بن عفراء بن الحارث : يا رسول الله ، ما يضحك الرب من عبده ؟ قال : «أن يراه قد غمس يده في القتال ، يقاتل حاسراً »[برقم ١٩٤٩٩ في مصنف ابن أبي شيبة] . فنزع عوف درعه ، ثم تقدم فقاتل حتى قتل شهيداً رضي الله عنه(١٨) .

(١٨) ينبغي ألا نفسر هذا - إن صح الخبر - بأنه قتال انتحاري، وإنما هو استبسال في القتال على هيئة تبث الرعب في صفوف العدو في ساحة القتال (المجلة)

الفريدة الثالثة
مقتل أبي جهل لعنه الله بسيوف ابني عفراء

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

(الفرقان : ٣١)

شجاعة فدائية - إخوة بعضهم من بعض

لعوف بن الحارث أخوان شقيقان : هما معاذ بن الحارث ، ومعوذ بن الحارث ، وأن ثلاثتهم أبناء عفراء بنت عبيد الأنصارية النجارية ، وقد شهر أبناؤها بنسبتهم إليها ، فيقال لهم أبناء عفراء ، ولهم أربعة أخوة لأم ، هم : إياس ، وعاقل ، وخالد ، وعامر ، أبوهم البكير بن عبد ياليل ، وسبعتهم شهدوا بدراً مع رسول الله ﷺ ، فكانوا أشجع أبطال قدمتهم امرأة للجهاد الفدائي في سبيل الله ، لنشر الدعوة إلى الله ومحاربة الشرك والوثنية ، وإقامة دعائم التوحيد والعدل والمحبة والإخاء .

وكان معاذ ، ومعوذ ، وعوف أبناء الحارث وعفراء من أول الأنصار إسلاماً بمكة ، إذ كانوا في الثمانية أو الستة نفر الذين لقوا رسول الله ﷺ فبايعوه البيعة الأولى ، ثم كان منهم من حضر العقبة الثانية وهي العقبة الكبرى ، وفيها كانت بيعة السبعين الذين كانت كثرتهم من الخزرج ، والمذكور فيهم لهذه المشاهد مجتمعة معاذ بن عفراء ، فهو عقبي ، بدري ، أحدي ، خندقي ، لم يتخلف عن مشهد من مشاهد الجهاد مع رسول الله ﷺ .

حفاوة النبي ﷺ بالربيع بنت معوذ:

ومعاذ هو الذي أهدى إلى النبي ﷺ قناعاً من رطب أرسل به مع بنت أخيه الربيع بنت معوذ، فوهبها النبي ﷺ حلية من ذهب، كان أهداها إليه صاحب البحرين، وقال لها: «تحلي بهذا».

وفي حديثها عند البخاري والترمذي من طريق خالد بن ذكوان، قالت جاءنا رسول الله ﷺ فدخل على غداة بني بي، فجلس على فراشي، وجويريات لنا يضربن بالدفوف، ويندبن من قتل من آبائي يوم بدر.. إلى أن قالت إحداهن: وفينا نبي يعلم ما في غد، فقال لها رسول الله ﷺ: «دعي هذه وقولي التي كنت تقولين قبلها»

وروى ابن الأثير في (أسد الغابة) عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، قال: قلت للربيع بنت معوذ: صفي لى رسول الله ﷺ، فقالت: يا بني، لو رأيته لرأيت الشمس طالعة.

وكانت الربيع بنت معوذ من المبايعات تحت الشجرة، وكانت تغزو مع رسول الله ﷺ، فتداوي الجرحى، وترد القتلى إلى المدينة، فهي غصن من دوحة زاهية، زاكية، أصلها ثابت في منابت الإسلام وفروعها متطاولة إلى السماء.

قصة الربيع بنت معوذ مع بنت مخربة أم أبي جهل:

ومن طريف حديث الربيع ما رواه ابن سعد في الطبقات في ترجمة أسماء بنت مخربة أم أبي جهل عن الربيع بنت معوذ قالت: دخلت في نسوة من الأنصار على أسماء بنت مخربة أم أبي جهل في زمن عمر بن الخطاب، وكان ابنها عبد الله بن أبي ربيعة أخو أبي جهل لأمه يبعث لها بعطر من اليمن وكانت تبيعه إلى الأعطية، فكنا نشتري منها، فلما جعلت لي في قواريرى، ووزنت

لي كما وزنت لصواحبي قالت: اكتبن لي عليكن حقي، فقلت: نعم اكتب لها على الربيع بنت معوذ، فقالت أسماء: خلفي، وإنك لابنة قاتل سيده؟ قلت: لا، ولكني ابنة قاتل عبده، قالت: والله لا أبيعك شيئاً أبداً، فقلت: وأنا والله لا أشتري منك شيئاً أبداً، فوالله ما هو بطيب ولا عرف، ووالله يا بني ما شممت عطراً قط أطيب منه، ولكني غضبت.

وفي (أسد الغابة) لابن الأثير أن أسماء بنت مخربة قالت للربيع بنت معوذ: حرام علي أن أبيعك من عطري شيئاً، فقالت لها الربيع: وحرام علي أن أبيعك من عطري شيئاً، فما رأيت لعطر نتناً غير عطرك، ثم قمت، وإنما قلت ذلك لأغيظها.

وأسماء العطارة هذه بنت مخربة أم أبي جهل وأخيه الحارث بن هشام قال عنها ابن عبد البر: ما أظنها أسلمت، وجزم البلاذري، نقلا عن ابن سعد أنها ماتت كافرة قبل أن يهاجر ابنها عياش إلى المدينة، قال ابن حجر في الإصابة: ويقال أنها أسلمت وأدركت خلافة عمر، وذلك أثبت.

خدعة أبي جهل أخاه لأمه عياش بن أبي ربيعة:

وقد قدمنا في حديث الهجرة أن ابنها عياشاً كان من السابقين الأولين المهاجرين إلى المدينة، وكان صديقاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأن أخاه لأمه أبا جهل أتاه إلى المدينة، فلم يزل به يفتل له في الذروة والغارب(١٩)، يروضه ويخدعه، ويكذب عليه، ويزعم له أن أمه أقسمت أن لا تطعم ولا تشرب حتى تراه،

(١٩) تعبير يجري مجرى المثل والذروة فيه أعلى سنام الجمل والغارب ما تحت الكتفين والفتل فيهما ضرب من الاحتيال للتحكم في الصعب من الإبل والمراد به ما زال به حتى استماله خداعا. (المجلة)

وقد نصحه عمر، وأبان له عن خداع أبي جهل ومكره به، فأبى أن يسمع لعمر بن الخطاب، وغلبت عليه العواطف البنوية، وصدق أبا جهل فيما زعمه له، وعاد إلى مكة معه، ولم يكد يستمكن منه خارج المدينة حتى أوثقه، ودخل به إلى مكة مغللا، وقال لملأ قريش: هكذا فافعلوا بسفهائكم.

وهذا يدل على أن أمه كانت لا تزال على قيد الحياة، وأنه فارقها مهاجراً وهي في عداد الأحياء، فزعم من قال: أنها ماتت قبل هجرة ابنها عياش بن أبي ربيعة زعم باطل بمقتضى هذه الرواية.

وحديث الربيع بنت معوذ في قصة العطر صريح في ذلك، وإن كان مشعراً بأنها كانت تعيش في حمأة العصبية الجاهلية، وقول البلاذري: أنها ماتت كافرة قبل أن يهاجر ابنها إلى المدينة نقلاً عن ابن سعد يناقض قول ابن سعد إنها أسلمت وبايعت.

ويظهر أن أمر أسماء العطارة أم أبي جهل اختلط على بعض الرواة بأمر بنت أخيها أسماء بنت سلمة الدارمية زوجة ولدها عياش بن أبي ربيعة، وأسماء بنت سلمة من السابقات المهاجرات ذوات الهجرتين، هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عياش بن أبي ربيعة، وهاجرت إلى المدينة في طلائع المهاجرين والمهاجرات إليها، وتكنى أم الجلاس، وفي الحبشة ولدت لزوجها عياش بن أبي ربيعة ولده عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة، وروت عن النبي ﷺ وروى عنها ابنها عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة.

قال ابن حجر في الإصابة: وخلط ابن منده ترجمتها بترجمة عمتها أسماء بنت مخربة، قال ابن حجر: وبيان الخلط أنه جمع بين قصتي الربيع بنت معوذ وعبد الله بن عياش، وقصة الربيع إنما

وقعت لها مع أسماء بنت مخربة، وهي المختلف في صحبتها، وقصة عبد الله بن عياش هي ما تضمنها هذا الحديث، وهي والدته المتفق على صحبتها.

تكريم النبي ﷺ للربيع بنت معوذ تكريم لأسرتها:

فإذا كرم النبي ﷺ الربيع بنت معوذ وأكرمها فإنه ﷺ إنما يكرم في شخصها الوفاء في أروع صورة وأرفع نماذجه، ويكرم ذروة الفضائل الإيمانية في أسرتها التي وهبت نفسها وجميع ما تملك من قوة ومال للجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمته، ونشر دعوته، دعوة الهدى والنور بإزالة العوائق والعقبات من طريقها، وحماية رسول الله ﷺ أن يمسه أحد من أعدائه وأعداء دعوته بسوء من القول أو الفعل.

فهذا أبو الربيع معوذ بن الحارث، وعمها معاذ بن الحارث أبنا عفراء يسمعان أن أبا جهل يسب النبي ﷺ فيعاهدان الله تعالى على قتله أو يموتا دونه.

فدائية ابني عفراء معاذ ومعوذ في حماية رسول الله ﷺ:

روى البخاري من طريق إبراهيم بن سعد، عن أبيه عن جده - أي عبد الرحمن بن عوف - قال: إني لفي الصف يوم بدر، التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأني لم آمن مكانهما إذ قال لي أحدهما سراً عن صاحبه: يا عم، أرني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي ما تصنع به؟ قال: عاهدت الله تعالى إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه، وقال لي الآخر: سراً من صاحبه مثله، قال عبد الرحمن بن عوف: فما سرني أني بين رجلين مكانهما، فأشرت لهما إليه، فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه، وهما ابنا عفراء.

وفي الصحيحين من حديث سليمان التيمي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من ينظر ما صنع أبو جهل؟» قال ابن مسعود: أنا يا رسول الله، فانطلق فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد.

هاتان روايتان وهما من أصح وأعلى الروايات سنداً تفيدان صراحة أن قاتل أبي جهل هما ابنا عفراء: معاذ، ومعوذ، أو معوذ وعوف ابنا الحارث، بيد أن الصحيحين رويا من طريق صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه، عن جده عبد الرحمن بن عوف - وهو الصحابي الجليل الذي روى القصة في الحدثين السابقين - قال: إني لواقف يوم بدر في الصف فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما، فغمزني أحدهما، فقال: يا عم أتعرف أبا جهل؟ فقلت: نعم، وما حاجتك إليه؟ قال: أخبرت أنه يسب النبي ﷺ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك فغمزني الآخر، فقال لي أيضاً مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل، وهو يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه، فابتدراه بسيفيهما حتى قتلاه.

ثم انصرفا إلى النبي ﷺ فأخبراه، فقال: «أيكما قتله؟» قال كل منهما: أنا قتلته، فقال ﷺ: «هل مسحتما سيفيكما؟» قالا: لا، فنظر النبي ﷺ في السيفين فقال: «كلاكما قتله» فقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والآخر ابن عفراء.

والناظر بعين التأمل يرى أن هذه الرواية - وهي في صحيح البخاري من طريق مسدد، عن عبد الرحمن بن عوف صاحب إحدى الروايتين السابقتين وهي المروية من طريق إبراهيم بن

سعد، عن أبيه، عن جده - وهو عبد الرحمن بن عوف - أما الرواية الثانية فهي من طريق سليمان التيمي عن أنس بن مالك وهي تخالف تينك الروايتين، رواية أنس بن مالك، ورواية عبد الرحمن بن عوف في إدخال معاذ بن عمرو بن الجموح في قصة قتل أبي جهل، فتجعله أحد القاتلين، بل جعلته هو القاتل، وجعلت بن عفراء شريكه في ضرب أبي جهل، وأن النبي ﷺ قضى بسلب أبي جهل لمعاذ بن الجموح وجمهور العلماء يقولون: إن قضاء النبي ﷺ لابن الجموح بسلب أبي جهل بعد أن أشركه مع صاحبه في القتل فقال: «كلاكما قتله» دليل على أن ضربة ابن الجموح كانت هي القاضية على حياة أبي جهل لأن السلب إنما يكون للقاتل، لا للمشارك في القتل.

ومعاذ بن الجموح لم نر له ذكراً في القصة إلا في آخر هذه الرواية، التي اعتمد عليها عبد الملك بن هشام، وسائر روايات الصحيح لا تذكر في قتل أبي جهل سوى ابني عفراء اللذين جاء النص عليهما في روايتي التيمي عن أنس وفي رواية إبراهيم بن سعد عن جده عبد الرحمن بن عوف، ففي رواية أنس يقول ابن مسعود: فانطلقت فوجدته قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، وفي رواية إبراهيم بن سعد، يقول عبد الرحمن بن عوف: فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه، وهما ابنا عفراء.

وهذا نص صريح لا يحتمل التأويل، أما ذكر معاذ بن عمرو بن الجموح في قصة قتل أبي جهل فيشبه أن يكون مقحماً، إذ تقول الرواية في آخرها فقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والآخر ابن عفراء، والغلط فيه بالوهم أقرب، لأنه يبعد جداً أن يكون عبد الرحمن بن عوف قائل ذلك وهو قد ثبت أنه قال في قاتلي أبي جهل: وهما ابنا عفراء، ويؤيد ذلك حديث ابن عباس

عن ابن أبي خيثمة عن معاذ بن عفراء، قال: سمعت القوم وهم في مثل الحرجة، وأبو جهل فيهم، وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه، فلما سمعتها جعلته من شأني، فقصدت نحوه، فلما أمكنني حملت عليه فضربته ضربة عظيمة أطنت قدمه بنصف ساقه، وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جانبي، وأجهضني القتال عنه، ولقد قاتلت عامة يومي، وإني لأسحبها خلفي فلما آذتني وضعت قدمي عليه وتمطيت حتى طرحتها.

فهذا الحديث صريح في أن معاذ بن عفراء هو صاحب الضربة الأولى التي أعجزت أبا جهل عن الحركة، وأن ابنه عكرمة ضرب معاذ بن عفراء فطرح يده التي تعلقت بجلدة من جنبه، وظل يسحبها وراءه حتى آذته فتمطى عليها حتى طرحها، ولم نر من ذكر أن معاذ بن عمرو بن الجموح هو صاحب هذه القصة.

فالإشكال في ذكر معاذ بن عمرو بن الجموح إنما جاء من رواية البخاري عن شيخه مسدد عن عبد الرحمن بن عوف على خلاف ما جاء عنه في الروايات الأخرى من تصريح بأن قاتلي أبي جهل هما ابنا عفراء.

ويمكن أن يقال في حل هذا الإشكال أن ذكر معاذ بن الجموح في هذه القصة، وإثبات إسناد قتل أبي جهل إليه يحتمل أن يكون قد وهم فيه بعض الرواة لتوافق اسمه مع اسم أحد أبناء عفراء، وهذا الاحتمال قد يبعده قصة سلب أبي جهل إذا ثبتت في غير حديث مسدد الذي جاءت هذه القصة فيه متبوعة بقوله: وكانا معاذ بن عفراء، ومعاذ بن عمرو بن الجموح، وهذا تعبير يوحي بشيء من التردد في قاتلي أبي جهل، بخلاف التعبير القاطع في

غير هذه الرواية على أن قاتلي أبي جهل هما ابنا عفراء.

ويمكن حل هذا الإشكال بطريق آخر، وذلك بأن معاذ بن عمرو بن الجموح وجد أبا جهل عقيرا في حياة أشبه بحياة المذبوح، فضربه فقضى عليه فكانت ضربته هي القاتلة، ويكون معاذ بن عفراء هو صاحب الضربة الأولى التي أثبتت أبا جهل، وتركته لا حراك فيه، فظن أنه قضى، وذهب إلى النبي ﷺ ببشرى قتله أبا جهل، فوجد معاذ بن عمرو بن الجموح عنده، أو يكون قد جاء في أثره، فقال: من سبق منهما إلى النبي ﷺ: قتلت أبا جهل، فقال الآخر: أنا قتلته، فسألهما النبي ﷺ: «هل مسحتما سيفيكما؟» فقالا: لا، فنظر النبي ﷺ إلى السيفين، فرأى أنهما صادقان في ضربهما لأبي جهل حتى قتلاه، فقال: "كلاكما قتله"، ولكنه ﷺ رأى في سيف معاذ بن عمرو بن الجموح ما يدل على أن ضربته هي القاتلة، فقضى له بسلب أبي جهل.

أو لعله ﷺ رأى أن ابن الجموح كان أكثر تطلعاً إلى السلب، وأن ابن عفراء كانت تغلب عليه فدائية الغيرة على النبي ﷺ، فطيب نفس ابن الجموح بإعطائه السلب، ووكل ابن عفراء لنيته وإخلاصه.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: قال المهلب: نظره ﷺ في السيفين ليرى ما بلغ الدم من سيفيهما، ومقدار عمق دخولهما في جسم المقتول، ليحكم بالسلب لمن كان في ذلك أبلغ، ولذلك سألهما أولاً: «هل مسحتما سيفيكما» لأنهما لو مسحاهما لما تبين المراد من ذلك، وإنما قال: «كلاكما قتله» وإن كان أحدهما هو الذي أثخنه ليطيب نفس الآخر.

ثم قال ابن حجر: وقال الإسماعيلي: أقول: إن الأنصاريين

ضربـاه فأثخناه وبلغ بـه المبلغ الذي يعلم معه أنـه لا يجوز بقاؤه علـى تلـك الحال إلا قدر ما ينتهي، وقـد دل قوله: «كلاكما قتله» علـى أن كلا منهمـا وصل إلى قطع الحشـوة وإبانتها، أو بما يعلم أن عمـل كل مـن سـيفيهما كعمل الآخـر، غير أن أحدهما سـبق بالضـرب، فصار في حكم المثبت لجراحه حتى وقعت به الضربة الثانية فاشـتركا في القتل إلا أن أحدهما قتله وهو ممتنع، والآخر قتله وهو مثبت، فلذلك قضى بالسلب للسابق إلى إثخانه.

وكلام المهلب والإسـماعيلي توجيه لإعطاء السلب لمعاذ بن عمرو بن الجموح وهو قائم على فرض ثبوت اشتراك ابن الجموح فـي قتل أبـي جهل، وهذا الثبوت يرده ما ثبت عن عبد الرحمن بن عوف عند البخاري من أن قاتلي أبا جهل هما ابنا عفراء، ومثله من الصحيح عن عبد الله بن مسعود.

ولا ندري لماذا رجح بعض الأئمة حديث مسـدد الذي جاء فيه ذكـر معاذ بن عمـرو بن الجمـوح على حديث التيمـي عن أنس، وحديث إبراهيم بن سعد، عن أبيه عن جده، وانتهضوا للدفاع عن قصة السلب وإعطائه لمعاذ بن عمرو بن الجموح؟

ولهذا حاول الحافظ ابن حجر في الفتح أن يجمع بين الروايات، فنقل عن ابن إسحاق طريقة هذا الجمع بين الأقوال فقال: وحاصله أن كلا مـن ابني عفراء سـأل عبد الرحمن بن عـوف عن أبي جهل فدلهما عليه فشدا عليه فضرباه حتى قتلاه.

وفـي آخر حديث مسـدد: وهمـا معاذ بن عمرو بـن الجموح، ومعاذ بن عفراء، وأن النبي ﷺ نظر في سيفيهما، وقال: «كلاكما قتله» وأنه قضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح.

وعفراء والدة معاذ، واسم أبيه الحارث، وأما ابن عمرو بن الجموح فليس اسـم أمه عفراء، وإنما أطلـق تغليباً، ويحتمل أن تكون أم معاذ بن عمرو بن الجموح تسـمى عفراء، أو أنه لما كان لمعوذ أخ يسـمى معاذاً باسم الذي شركه في قتل أبي جهل ظنه الراوي أخاه.

ثـم قال ابن حجر: قال ابن إسـحاق: وحدثني عبـد الله بن أبي بكر بـن حزم: قال معاذ بن عمرو بن الجموح سـمعتهم يقولون، وأبـو جهل في مثل الحرجـة: أبو الحكم لا يخلـص إليه، فجعلته من شأني، فعمدت نحوه فلما أمكنني حملت عليه فضربته ضربة أطنت قدمـه، وضربني ابنه عكرمة علـى عاتقي فطرح يدي، ومر بأبي جهل معوذ بن عفراء فضربه حتى أثبته وبه رمق، فمر عبد الله بن مسعود بأبي جهل فوجده في آخر رمق.

قال ابن حجر: فهذا الذي ذكره ابن إسـحاق يجمع بين الأحاديث لكنـه يخالف ما فـي الصحيح من حديث عبد الرحمـن بن عوف أنه رأى معاذاً ومعوذاً - أي ابني عفراء - شدا عليه جميعاً حتى طرحاه.

وابـن إسـحاق يقـول: إن ابن عفـراء وهـو معـوذ، والذي في الصحيح أنه معاذ، وهما أخوان، فيحتمل أن يكون معاذ بن عفراء شـد عليه مع معاذ بن عمرو بن الجمـوح، كما في الصحيح - أي في حديث مسدد - وضربه بعد ذلك معوذ حتى أثبته، ثم حز رأسه عبد الله بن مسعود.

وقـد عرفنـا أن الصحيح كما ذكـر في حديث مسـدد أن معاذ بـن عمرو بن الجموح شـد عليه مع معاذ بن عفـراء، فقد ذكر في حديـث عبد الرحمـن بن عوف أن اللذين شـدا عليه فضرباه حتى أثبتاه هما ابنا عفراء، وكذلك في حديث عبد الله بن مسـعود، فما

المرجح لحديث مسدد في الصحيح على حديثي عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود ؟ وعبارة حديثيهما أوفى بالمطلوب من عبارة حديث مسدد.

قال ابن حجر بعد أن ساق كلام ابن إسحاق : فتجمع الأقوال كلها، وإطلاق كونهما قتلاه يخالف في الظاهر حديث ابن مسعود أنه وجده وبه رمق، وهو محمول على أنهما بلغا به بعد ضربهما إياه بسيفيهما منزلة المقتول حتى لم يبق به إلا مثل حركة المذبوح، وفي تلك الحالة لقيه ابن مسعود فضرب عنقه.

ليس بمثل هذا التلفيق وفرض الاحتمالات الواهية الواهنة، والتأويلات المتعسفة تُحل إشكالات الروايات وتُجمع الأقوال، وكان يجب في شرعة البحث الممحص الوقوف عند روايات الصحيح، فإذا وقع فيها التعارض فلا يجوز أن يُقحم عليها غيرُها مما ليس في قوتها سندًا، بل يجب الترجيح بأسباب تقتضي الترجيح ورد ما عسى أن يكون فيها عرضة للوهم.

والرواية عن ابن إسحاق - مع كونها لا توضع في ميزان النقد مع روايات الصحيح - مختلفة متضاربة، ففي حديث ابن عباس من طريق ثور، عن عكرمة أن الذي ضرب أبا جهل فأطنَّ قدمه هو معاذ بن عمرو بن الجموح، وفي حديثه عن ابن عباس أيضًا فيما أخرجه ابن أبي خيثمة عن يوسف بن بهلول، عن عبد الله بن إدريس، عن ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن معاذ بن عفراء أنه هو الذي ضرب أبا جهل فأطن قدمه.

قال ابن حجر : ويمكن الجمع أن كلا منهما ضربه، وهذا الجمع يكتنفه التعسف في التأويل ؛ لأن الضربة التي ضُرِبها أبو جهل

موصوفة بوصف يبعد جدًا أن تكون وقعت منهما بوصفها، إذ لم يذكر أحد من الرواة أن أبا جهل ضُرب ضربتين كلتاهما أطنَّت قدمه.

ثم قال ابن حجر : وأصح من ذلك ما في الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن عوف في قصة أبي جهل : فضربه ابنا عفراء حتى برد، وهما معاذ ومعوّذ.

وقد ذكر عز الدين بن الأثير في (أسد الغابة) هذا الاختلاف في الرواية عن ابن إسحاق، فذكر رواية البكائي عن ابن إسحاق، عن ثور بن يزيد، عن عكرمة، عن ابن عباس وعبد الله بن أبي بكر بن حزم، وذكر قصة ضرب أبي جهل ضربة أطنَّت قدمه مُسندة إلى معاذ بن عمرو بن الجموح.

ثم ذكر ابن الأثير أن إدريس رواها عن ابن إسحاق لمعاذ بن عفراء، وابن الأثير أخرج بسنده حديث عبد الرحمن بن عوف الذي رواه البخاري من طريق الشعبي، وفيه بعض الاختلاف، فقال : وأخبرنا عبد الله بن أحمد بإسناده عن يونس بن بكير، قال : حدثني السري بن إسماعيل، عن الشعبي، عن عبد الرحمن بن عوف قال : كنا مواقفي الأعداء يوم بدر، وابنا عفراء الأنصاريان مكتنفان وليس قربي أحد غيرهما، فقلت في نفسي : ما يوقفني هاهنا ؟ فلو كان شيء لأجلى هذان الغلامان عني وتركاني، فبينما أنا أحدث نفسي أن أنصرف إذ التفت إلى أحدهما، فقال : أي عم، هل تعرف أبا جهل ؟ فقلت : نعم، وما تريد منه يا ابن أخي ؟ فقال : أرنيه، فإني أعطيت الله عهدًا إن أنا عاينته أن أضربه بسيفي حتى أقتله أو يُحال بيني وبينه، فالتفتَ إليّ الآخرُ فسألني عن مثل ما سألني عنه أخوه، وقال مثل مقالته، فبينا أنا كذلك إذ برز أبو جهل على فرس ذنوب - أي وافر شعر الذنب - يُقوّم الصف، فقلت :

هذا أبو جهل، فضرب أحدهما فرسه حتى إذا اجتمع له حمل عليه فضربه بسيفه فأندر فخذه[٢٠]، ووقع أبو جهل، وتحمل عضروط - أي خادم أو صعلوك يتبع أبا جهل على ملء بطنه - كان مع أبي جهل على ابن عفراء فقتله، فحمل ابن عفراء الآخر على الآخر على الذي قتل أخاه فقتله، وكانت هزيمة المشركين.

فهذا الحديث هو في أصل القصة - والتصريح بأن عاقري أبا جهل وضاربيه هما ابنا عفراء - عين حديث عبد الرحمن بن عوف عند البخاري كما قدمناه، والتصريح فيه لا يحتمل التأويل، وقد اختلف هذا الحديث مع حديث البخاري في أن الضربة أندرت فخذ أبي جهل، وهناك أطنَّت قدمه، وفي بعض الروايات: أطنت قدمه بنصف ساقه، واتفق مع حديث البخاري في أن الضارب لأبي جهل هو أحد ابني عفراء، وليس فيه ذكر قط لمعاذ بن عمرو بن الجموح.

ولهذا فنحن نرجح روايات الصحيح التي يوحي أسلوبها وتدرج أحداثها بترجيحها على جميع ما عداها من الروايات بما فيها رواية مسدد، وهي وإن كانت من روايات الصحيح لكنها لا تقف مع روايتي عبد الرحمن بن عوف وأنس بن مالك، ولا نلتفت إلى رواية ابن إسحاق التي وقع فيها التعارض، وقد غمز ابن حجر رواية ابن إسحاق بقوله: فهذا الذي رواه ابن إسحاق يجمع بين الأحاديث، لكنه يخالف ما في الصحيح.

وحسبنا أن تكون مخالفته لما في الصحيح سببًا لعدم الالتفات إليه والأخذ به، وإلا فأين ابن إسحاق ورجال أسانيده من البخاري ورجاله؟! ونحن لا ندعي العصمة لأحد من الناس حاشا أنبياء الله ورسله،

(٢٠) ضرب يده أو فخذه فأندرها أي: أسقطها، وأصل المعنى: قولهم عن شيء إنه نادر أي أنه ساقط غير موجود، على سبيل المبالغة. (المجلة)

مهما بلغ من المكانة والشهرة، والله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

ولعل قصة معاذ بن عمرو بن الجموح وقعت في مناسبة أخرى مع أشخاص آخرين، فاشتبه أمرها على بعض الرواة فأدخلها في قصة قتل أبي جهل مع ابني عفراء، وجرى فيها الأخذ والرد بين العلماء، وعلم الحقيقة في واقع الأمر مما استأثر الله بعلمه.

غرائب لابن سعد في الطبقات انفرد بها ولم نرها لغيره:

ومن أغرب ما جاء في قصة قتل أبي جهل ما ذكره محمد بن سعد في الطبقات في ترجمة معوذ بن الحارث بن عفراء، وهو الذي ضرب أبا جهل هو وأخوه عوف بن الحارث حتى أثبتاه، وعطف عليهما أبو جهل[٢١] - لعنه الله - يومئذ فقتلهما، ووقع أبو جهل صريعًا فذفف عليه عبد الله بن مسعود[٢٢] - رحمه الله - ثم قال ابن سعد في ترجمة عوف بن الحارث، أخي معوذ، ومعاذ ابني الحارث، وقتل عوف بن الحارث يوم بدر شهيدًا، قتله أبو جهل بن هشام بعد أن ضربه عوف وأخوه معوذ ابنا الحارث فأثبتاه، وذكر أبو عمر بن عبد البر في ترجمة عوف بن عفراء وهو - كما قال أبو عمر - عوف بن الحارث أن أبا جهل قتل عوف بن الحارث وأخاه معوذ بن الحارث ابني عفراء بعد أن ضرباه فأثبتاه، فوقع صريعًا، ثم عطف عليهما فقتلهما، ولم يذكر ذلك أبو عمر في ترجمة عوف بن الحارث، بل اكتفى فيها بقوله: وقتل عوف وأخوه معوذ يوم بدر شهيدين.

ووجه الغرابة أن ينسب قتل معوذ وأخيه عوف ابني عفراء إلى أبي جهل بعد أن ضرباه فأثبتاه، والإثبات في لغة العرب: الحبس

(٢١) العطف هنا بمعنى الالتفات. (المجلة)
(٢٢) ذفَّفَ عليه أي: أجهز عليه. (المجلة)

عن الحركة، قال صاحب لسان العرب: وفي حديث أبي قتادة: فطعنته فأثبته، أي حبسته وجعلته ثابتًا في مكانه لا يفارقه، وأثبت فلان فهو مثبت إذا اشتدت به علته، وأثبتته جراحه فلم يتحرك.

فكيف إذن يعطف عليهما أبو جهل بعد أن ضرباه فأثبتاه فيقتلهما معًا دون أن يتمكنا من القضاء عليه أو يحيدا عنه؟! هذا بعيد جدًا، وأبو جهل لم يُعرف في قومه بشجاعة وقوة بدنية تجعله بهذه المثابة وهو مُثبت من الجراح، والله تعالى يعلم مِنْ خلقه ما لا يعلم العالمون.

والروايات كلها تكاد تُجمع على أن نهاية هذا الطاغية الخبيث أبي الجهل ابن هشام المخزومي كانت على يد مَن كان يستضعفه ويضطهده بمكة، ويؤذيه – فلا يستطيع دفعًا لفجوره سوى التدرع بالصبر والاعتصام بالله رجاء أن يديله منه[٢٣]، ويأخذه بفجوره وطغيانه – عبد الله بن مسعود أحد سادات أصحاب النبي ﷺ وعلمائهم السابقين إلى الإسلام –رضي الله عنه– بعد مكالمة بينهما ليست بالقصيرة المقصرة عن بلوغ مداها، تقصيرًا يؤذن بالحشرجة المغرغرة لهذا الجبان الفاجر أبي جهل، ولا هي بالطويلة المسهبة التي توحي بإسهابها ببقاء الحياة بقاء تُخشى معه الوثبة الفاجرة من قِبل هذا الطاغية الحقود.

وعبد الله بن مسعود عاش في الإسلام بروحه وقلبه وعقله، وعلمه وفضله، وقربه من رسول الله ﷺ قربًا جعل كثيرًا من الناس يعده من آل البيت لكثرة ما كان يخدم رسول الله ﷺ، وكان رضي الله عنه أحمش الساقين، ضئيل البنية البدنية، وكان أبو جهل يؤذيه ويضبث به، فاستجاب الله له وأدال له منه، وأجلسه على

(٢٣) المراد: أن يبعده عنه، يقولون أدال الأمير فلانا أي أقاله من وظيفته. (المجلة)

صدره، ورد له كيله وضبث به[٢٤]، واحتز رأسه بنفس سيفه الذي غلبه عليه، ونفله له النبي ﷺ.

وقد أبان أبو جهل في مكالمته لابن مسعود عن عتو كفره، وفجور طغيانه ودخيلة لؤمه، وخبيث نحيزته، وكشف عن مطويات حقده على رسول الله ﷺ، وعلى مجتمعه المسلم وعلى رسالته رسالة النور والهدى التي جاءهم بها محمد ﷺ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعُدّهم بشرائعها وآدابها ونظمها الاجتماعية الممثلة في منهجها التربوي لقيادة الإنسانية إلى آفاق التقدم الحضاري القائم على دعائم الإيمان بالله إلهًا واحدًا، وخلع جلابيب الشرك والوثنية، وتحرير العقل الإنساني من أغلال التعبد لأحجار هبل واللات والعزى، وإقامة موازين العدل بين عامة الناس وخاصتهم، ونشر راية حرية العيش الكريم لكل فرد في المجتمع الإنساني في ظل المساواة الأخوية في الحقوق والواجبات، والقضاء على استعباد الإنسان لأخيه الإنسان من أجل لقمة العيش؛ ليعيش الناس أينما وجدوا من أرض الله إخوة سواسية في ظل ما يقدمه كل فرد أو مجتمع من عمل صالح وخير يرتفع بالفرد والجماعة إلى ذروة الفضائل الإنسانية والتراحم الأخوي، فلا سائد ولا مسود، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل النافع المفيد للحياة، والمجتمع الإنساني كله.

فالتعبيرات التي جاءت في بعض روايات قصة قتل هذ الخبيث أبي جهل الذي قاد قومه إلى حتوفهم مقرنين بأصفاد الذل والهوان والهزيمة النكراء التي أتت على أشرافهم قتلًا، وأسرًا، وتشريدًا دَمَغَهُم بالصغار والخزي، ووصمهم بالعار والخذلان – لم تكن

(٢٤) ضبث به: تناوله بيده. (المجلة)

كلها من قبل الحقيقة المجردة عن التوسع في منطق الأداء البياني الذي يوحي بوقوع النهاية التي لا مكان معها لأي لون من ألوان ذماء الحياة(٢٥)، وإنما كانت صورة متدرجة إلى المصير المحتوم؛ لأن مكالمة [حديث] ابن مسعود -رضي الله عنه- مع هذا الطاغية الكفور تختلف فيها الروايات إيجازًا وإطنابًا، وهي في كلتا حالتيها محتاجة إلى حياة مدرِكة لما تقول وما يُقال لها في أية مكالمة أو محاورة.

فإذا جاء في حديث عبد الرحمن بن عوف رواية الصحيحين قوله: فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، فإنه لا يُراد بالقتل في هذا التعبير إزهاق الروح الذي لم يبق معه للحياة أثر، وإنما يراد به أنهما بضربهما إياه بسيفيهما بلغا به منزلة المقتول التي قامت به أسباب الموت، وفي تلك الحالة لقيه ابن مسعود -رضي الله عنه- فكالمه وحاوره مُقرِّعًا له على ما كان منه من فجور وطغيان واستكبار في الأرض، فرد على ابن مسعود بما في قلبه من حقد وعتو، وهو يمضي إلى نهايته، فضرب ابن مسعود عنقه، واحتز رأسه بسيف نفسه.

ويؤيد ذلك ما ذكره الزرقاني في شرح المواهب فقال: وعند ابن عقبة وأبي الأسود، عن عروة أن ابن مسعود -رضي الله عنه- بعد هذه المكالمة وجده لا يتحرك منه عضو، فأتاه من ورائه فتناول قائم سيفه، فاستله منه ورفع بيضته عن قفاه فوقع رأسه بين يديه.

وكذلك ما جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «من ينظر ما فعل أبو جهل؟» فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى (برك) وفي رواية

(٢٥) الذماء: بقية الروح في المذبوح. (المجلة)

(برد) ومعنى برد مات، قال صاحب لسان العرب: وضربه حتى (برد) أي مات، ومعناه في الاشتقاق أن الحياة انقطعت عنه، وذهبت منه حرارتها، فهو من البرد ضد الحر، فأخذ ابن مسعود بلحيته فقال له: أنت (أبا جهل) ومعنى هذا: تبكيته وتقريعه بهذا الاستفهام الإنكاري، وهمزته محذوفة مع المبتدأ، والتقدير: أهو أنت؟ وقوله: أبا جهل بالنصب منادى محذوف حرف النداء، والمعنى: أهو أنت المستكبر الفاجر الطاغية؟ يا أبا جهل، فقال لابن مسعود، وقد فهم تبكيته له: فهل فوق رجل قتله قومه؟.

وعند ابن إسحاق والحاكم، قال ابن مسعود: فوجدته بآخر رمق، فوضعت رجلي على عنقه، فقلت: أخزاك الله، يا عدو الله، فقال: وبم أخزاني؟ هل أعمد من رجل قتلتموه؟ أي هل أشرف من رجل قتلتموه، أخبرني لمن الدبرة اليوم؟ أي النصر والظفر، وفي رواية: لمن الدائرة؟ لنا أو علينا.

وفي حديث الأعمش عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: انتهيت إلى أبي جهل وهو صريع، وعليه بيضته، ومعه سيف جيد، ومعي سيف رديء فجعلت أنقف رأسه بسيفي(٢٦)، وأذكر نقفًا كان ينقف رأسي بمكة حتى ضعفت يده، فأخذت سيفه، فرفع رأسه فقال: على مَن كانت الدائرة لنا أو علينا؟ فقلت: لله ورسوله.

وعند الإمام أحمد من حديث وكيع، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، قال: قال عبد الله بن مسعود: انتهيت إلى أبي جهل يوم بدر، وقد ضُربت رجله، وهو يذب الناس عنه بسيف له، فقلت: الحمد لله الذي أخزاك الله يا عدو الله!! فقال: هل هو إلا رجل قتله قومه؟ فجعلت أتناوله بسيف لي غير طائل، فأصبت

(٢٦) نقف رأسه: ضربها بالسيف حتى خرج دماغه. (المجلة)

يده، فندر سيفه(٢٧)، فأخذته فضربته به حتى قتلته، ثم خرجت حتى أتيت النبي ﷺ كأنما أُقَلّ من الأرض، فأخبرته فقال: "آلله الذي لا إله إلا هو؟" فرددها ثلاثًا، فقلت: آلله الذي لا إله إلا هو، فخرج النبي ﷺ يمشي معي حتى قام عليه، فقال: «الحمد لله، قد أخزاك الله يا عدو الله، هذا كان فرعون هذه الأمة».

سرور رسول الله بقتل أبي جهل فرعون هذه الأمة:

وعند أبي داود والنسائي من رواية أبي إسحاق الفزاري، عن الثوري، عن أبي إسحاق السبيعي عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: أتيت رسول الله ﷺ يوم بدر، فقلت: قد قتلت أبا جهل. فقال: (آلله لا إله إلا هو) فقلت: آلله الذي لا إله إلا هو، مرتين أو ثلاثًا، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده» ثم قال ﷺ: «انطلق فأرنيه» فانطلقت فأريته، فقال: «هذا فرعون هذه الأمة» وفي رواية أنه ﷺ لما أتاه ابن مسعود برأس هذا الخبيث الكفور - وكان اللعين قد قال لابن مسعود: أبلغ محمدًا أني لم أزل عدوًا له سائر الدهر، واليوم أشد عداوة له - قال له: «كما أني أكرم النبيين على الله، وأمتي أكرم الأمم على الله، كذلك فرعون هذه الأمة أشد وأغلظ من فراعنة سائر الأمم، إذ فرعون موسى حين أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (يونس: ٩٠) وفرعون هذه الأمة ازداد عتوًا وكفرًا».

فالله تعالى لم يعجل لهذا الخبيث أبي جهل الموت بضربات الأبطال من أشبال الأنصار، ولكنه أبقاه مصروعًا في حالة من

(٢٧) ندر سيفه: سقط. (المجلة)

الإدراك والوعي بعد أن أصابته ضربات أشفت به على الهلاك الأبدي ليريه بعين بصره ما بلغه من المهانة والذل والخذلان على يد مَن كان يستضعفه ويؤذيه، ويضطهده بمكة من رجال الرعيل الأول، السابقين إلى مظلة الإيمان وطهر العقيدة، والتعبد لله بشرائعه التي أنزلها رحمة للعالمين عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-، فيعلو على صدره، ويدوسه بقدميه، ويقبض على لحيته تحقيرًا له، ويُقرّعه تقريعًا يبلغ من نفسه مجمع غروره واستكباره في الأرض، ويستل منه سيفه إمعانًا في البطش به فيقتله به، ويحتز رأسه ليرمي به تحت نعلي رسول الله ﷺ هوانًا به، ويُمعن في إغاظته بإخباره أن النصر عَقد بناصية جند الله وكتيبة الإسلام، وأن شنار الهزيمة النكراء وعارها، وخزيها وخذلانها قد رزئت به كتائب الغرور الأجوف في حشود النفير الذي قاده هذا الكفور الخبيث ليواقف به بطولة الفدائيين من أنصار الله ورسوله حتى يفضي إلى جهنم مع جيف القليب مغيظًا محنقًا، مكبوتًا بالكمد والكبت والغم والنكال والغصص، يقتله الحقد الذليل قبل أن تقتله سيوف الأعزة من المجاهدين.

كانت هذه الفريدة غرة فرائد بدر فطال فيها رشاء القلم(٢٨).

ونستعفي القارئ إذْ أطلنا النَّفس في هذه الفريدة من فرائد بدر العظمى؛ لأنها فريدة جمعت أطراف المنهج النبوي في تطبيقه على أيدي أول كتيبة من كتائب المجتمع المسلم، خرجت على غير أهبة قتالية في قلة عدد وضعف عُدة لتلقى عِير مشركي مكة قادمة من مكة وآيبة إليها، وفيها أموالهم وتجاراتهم، وكان هذا الخروج إنذارًا وتحذيرًا لهؤلاء الطغاة من مردة الوثنية وشياطين الشرك البليد.

(٢٨) الرشاء: الحبل. (المجلة)

وقـد بيَّنا دوافع خروج النبي ﷺ لملاقاة عير قريش في ذهابها وإيابهـا، ولـم يكن في هـذه الدوافع شـيء يوحي بتوقـع الحرب والقتـال، ولهذا لم يتأهب رسـول الله ﷺ للقتال فـي خرجاته التي سبقت بدرًا والتي كانت سببًا في وقعة بدر، وخرج ﷺ على ما كان عليـه هو وأصحابه الذين شـهدوا إخباره لهم بعيـر قريش ومرورها على مدينتهم، ولم يستعن بالذين كانت مراكبهم في علو المدينة، واسـتأذنوه ليحضروهـا ويخرجـوا معـه، فضـلا عن كونـه ﷺ لم يستوعب مَن سمعه يخبر بالعير، وكانت وسائل خروجه متوافرة.

وسـمع المشـركون بمكـة بمخـرج رسـول الله ﷺ متعرضـا لعيرهم، وأرسـل إليهم أبو سـفيان أمير العير يسـتنفرهم لحماية أموالهـم، فخرجوا على الصعب والذلـول موعبين متأهبين للقتال والحرب، يقودهم لعينُهم خبيث الفاسـقين أبو جهل ابن هشـام، متنفجًا بالغرور والحقد، مليئًا بالحنـق والغيظ وعتو الكفر حتى بلغوا بدرًا، وهم ألف مقاتل، يتقدمهم أشرافهم وطواغيتهم، معهم أسـلحتهم ومؤنهم وعتادهم من الركائب والأفراس، مستصحبين معهم الجواري والمعازف وزقاق الخمر، وسائر أدوات الفجور.

موقف أولياء الرحمن وفجور أولياء الشيطان:

والتقـى الجمعان على ما وصفنا من الوقائع والأحداث، ودارت رحى الحرب بين قوتين غير متكافئتين في شيء من العدد والعدة، بـل كانـا متفاوتين، أكبر تفـاوت أطمـع لعينهم في أخـذ مقاتلة المسـلمين أخـذًا بالأيـدي، وقال لمـن معه من طواغيت الشـرك وعبيد الوثنية: لا يهولنكم قتل عتبة، وشـيبة، والوليد، فإنهم قد عجلوا، فواللات والعزى لا نرجع حتى نفرق محمدًا وأصحابه في الجبال، فلا ألفينَّ رجلا منكم قتل رجلا، ولكن خذوهم أخذًا حتى

نعرِّفهم سـوء صنيعهم مـن مفارقتهم إياكـم، ورغبتهم عن اللات والعزى، وإن هم إلا أكلة جزور(٢٩).

هكـذا كان موقف الغرور الأحمق، والطيـش المأفون، والبطر المغيـظ، وهكـذا كانت نظـرة فجور الكفـر، وعتـو الفجور إلى المجتمع المسـلم الناشئ في تركيبه الجديد مع قلة عدده وضعف عدته المادية التي يتعزز بها عبيدها من أهل الغرور والفجور.

أما موقف المجتمع المسلم فكان موقفًا يستشعر الإيمان بكل ما يملك هذا المجتمع من قوة روحية، ويستشـعر وثيق الثقة بقوة الله وقهره وجبروته ومحكم تدبيره وبالغ حكمته.

كان موقفًـا فدائيًـا، أحب فيـه جنود الله الموت استشـهادًا في سبيل الله، فوهب الله لهم الحياة وأنزل عليهم نصره وتأييده.

وكان موقفًـا طـرح فيه النبي ﷺ نفسـه المشـرفة على أعتاب الضراعة والتذلل لله تعالى، يناشد ربه الإبقاء على مجتمع التوحيد الخالص ليعبده وينشـر لـواء وحدانيته في آفـاق الأرض، ويقوِّض معالم الشـرك ويقضي على الوثنيات في جميع صورها وأشكالها، ويقيـم منائر العدل والإخـاء بين أبناء الإنسـانية أينما وجدوا من أرض الله وأرجاء الكون.

وكان موقفًا استجاب الله عز شأنه فيه لنبيّه محمد ﷺ مناشدته واسـتغاثته فأمـدّه بنصـره وأغاثـه بمدد مـن عنده ثَبَّـت به قلوب أصحابه، وبعث فيهم حمية الإيمان وقوة العزائم المجاهدة لإعلاء كلمة الله، وأنزل على أعداء الحق والخير من طواغيت الكفر رِجْزًا

(٢٩) الجزور: الناقة المجزورة أي المذبوحة، والمراد بقوله: "إن هم إلا أكلة جزور" أنهم لا بأس لهم. (المجلة)

من السماء، ملأ قلوبهم بالرعب والهلع، فكانوا أمام جند الحق أشباحًا خاوية، يفرُّون منهزمين إلى غير مفر، وتنزلت آيات الله تحمل في طياتها روح الفداء وملاقاة الموت في مظانّ الشهادة فرحًا بمنازل الشهداء عند الله.

وحقت لعنة الله على أعداء الله فقُتّلوا تقتيلًا، وأخذوا بالأيدي أسرا، وشُرِّدوا في الأرض هربًا مفزعين أمام عزائم الإيمان التي ادّرع بها جند المجتمع المسلم، وصدق الله وعده، وأعزّ جنده، ونصر عبده، وهزم الفجار، وأنجز لرسوله محمد ﷺ عهده بالنصر المؤزر، وحقق له رغائبه، وأعلى كلمته، وأقرَّ عينه، وأثلج صدره، وأعزه وأعز القلة الصابرة المؤمنة على الكثرة الكافرة الفاجرة.

مفاخرة موقف أولياء الرحمن:

ولو لم يكن في هذا الموقف من آيات الله إلا أن تعلو أقدام عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- في ضآلة جسمه صدر أبي جهل في عتوّه واستكباره وهو كبش الكتيبة الكافرة، وقائد حشود الطغيان والفجور الذي زعم له منافقوه أنه لا يُخلص إليه - لَكفى في سجل مفاخر غزوة بدر أن يكون أعظم شرف لها بين معارك الحرب والقتال.

ولو لم يكن في هذا الموقف العظيم إلا حمية الغَيْرة الإيمانية التي ارتدى جلبابها ابنا عفراء معوذ ومعاذ، وقد سمعا أن أبا جهل يقع في النبي ﷺ ويسبه، فيعاهد كل واحد منهما الله سرًا من وراء أخيه لئن رأى أبا جهل فلن يفارق سوادُه سوادَه حتى يقتله أو يموت دونه.

ويبرز أبو جهل في غروره وفجوره في مجال المعركة ويلمحه عبد الرحمن بن عوف، فيقول لهما: هذا صاحبكما الذي كنتما تسألان عنه، فينقضّا عليه كالصقرين، ويضربه أحدهما ضربة عظيمة أطنَّ بها قدمه بنصف ساقه فصرعه، وتركاه لقدره

العجيب، لعبد الله بن مسعود ليقضي عليه، فقضى عليه بعد أن جلله بعار الهزيمة التي حقت على حشوده الخاوية، واحتز رأسه ورمى به تحت نعلي رسول الله ﷺ، وتمر صورة فجور هذا اللعين وبطشه بضعفاء المؤمنين في مكة، وحشده أعجاز النخل الخاوية من أشباح الهزيمة لحرب المجتمع المسلم وإرادة استئصاله أمام رسول الله ﷺ فيخرُّ لله ساجدًا شاكرًا لأنعمه، وتنادي الدنيا في آفاق الأرض وهي تتلو قول الله تعالى تعبيرًا عن مشيئته المطلقة:

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (البقرة: ٢٤٩).

لو لم يكن في هذا الموقف إلا هذا لأغنى عن كل مكرمة من مكارم بدر العظمى في سجلات الفداء، ولكن الله جعل من غزوة بدر أعظم نموذج لتربية المجتمع المسلم تربية سلوكية عملية في مجال الجهاد، فمحى بها قانون الأسباب المادية، وقضى على فكرة تفوق الكثرة على القلة لمجرد الكثرة والقلة، فالكثرة إذا تجردت في عملها عن هدف تقصده من العمل الصالح فلا قيمة لوزنها، وإذا كان لها هدف وجب في شرعة الحق أن يكون هذا الهدف أمرًا اجتماعيًا يرفع من شأن المجتمع، أما إذا كان الهدف هو الاعتداء على المجتمع في حياته فهو هدف فاسد لا يصلح أن يكون دعامة للتفوق على القلة التي تتخذ لها هدفًا تقاتل من دونه لتصل إلى رفعة المجتمع الإنساني في سلوكه.

ومن هنا كانت غزوة بدر ميزانًا يفصل بين القلة المستهدفة والكثرة المستهترة، فالقلة المستهدفة تعتمد على عوامل تنبع من داخل النفس، وأهم هذه العوامل الإيمان بهدفها الذي تعمل للوصول إليه.

أما الكثرة المستهترة فليس لها هدف يتصل بقلبها؛ لأنها لا تحمل في صدرها قلبًا تتنزل إليه حقائق غير موروثاتها من الفجور والظلم

والطغيان والبطش بالضعفاء ليظلوا ضعفاء تستعبدهم بما تملك من لعاعات الدنيا[٣٠]، ويبقى لها شرف هذا الفجور تعيش من أجله.

فغزوة بدر لا كفاء لها في الغزوات، ولا مثيل لها في الوقائع والحروب بدءًا ونهاية، واختلاف نهايتها عن بدئها هو سر عظمتها، فهي أول وأعظم غزوة في الإسلام، أعز الله بها دينه، وأيد بها نبيه ﷺ، ونصر فيها جنده على قلة عددهم وضآلة عدتهم، وأذل بها أعداءه، وأعداء دينه على كثرة عددهم وقوة عدتهم المادية من المؤن والسلاح، وأظهر بها ما حجبه الغيب من سنن كونية خاصة لا تظهر إلا لمناسباتها، فكانت نموذجًا لهذه السنن الخاصة التي لا تتقيد بالأسباب المادية أيًا كان نوعها، وجعلها الله نموذجًا للمجتمع المسلم في مستقبل حياته حتى لا تُرهبه القوى المادية في كثرة عددها ووفور عدتها وتنوع أسلحتها؛ لأن هذه القوى المادية مهما عظمت بغير إيمان لا قيمة لها في موازين الأقدار الإلهية، فالنصر مع الإيمان، بشرط ألا يكون إيمانًا سلبيًا لا حوافز له ولا دوافع تسانده، وإنما يجب أن يكون إيجابيًا وعمليًا تهيئ له الدوافع التي تسنده من القوى المادية التي أمر الله بإعدادها، وهذا الإيمان هو الركيزة التي تفقدها الكثرة، وبه ترجح كفة القلة المؤمنة، على الكثرة الخاوية الجوفاء، والله تعالى ينزل نصره على مَن يشاء من عباده وهو العزيز الحكيم.

(٣٠) لعاعات الدنيا: متاعها الزائل، واحدته لُعاعة وهو الشيء القليل سريع الفناء. (المجلة)

الفريدة الرابعة

بلال مؤذن الإسلام يقضي على حياة ثاني طواغيت الكفر أمية بن خلف

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ (القصص: ٥، ٦).

القصص القرآني يمثل نماذج من الأشخاص والأحداث غير مقيدة بزمان أو مكان أو جيل:

قصص القرآن الكريم نماذج لأشخاص وأحداث لا تتقيد بزمان ولا يحصرها مكان، فهي حقائق واقعية تمثل صور أشخاصها باعتبار معالمهم الوصفية العامة التي تحدد خصائصهم الإنسانية متعددة المثل في مجاري التطبيق، وطرائق السلوك في الحياة.

وتمثل أحداثًا واقعية متشابهة المعالم في تاريخ الإنسانية منذ أن تنفست على الأرض، فهي وقائع حقيقية تتحدث عن مشاهد شهدتها الحياة في مراحل مرور التاريخ بأطوار الحياة مهما تباعد بها الزمن وتغير المكان، فهي هنا مثلها هناك، وقد تتغاير الأسماء والظواهر والأسباب، وأسماء الأشخاص وأسماء الأمكنة وتنوع الأسباب، لكن الخصائص العامة المحددة لمواصفات الأشخاص والأماكن تبقى كما هي منطبقة على جميع نظائرها في إطار التاريخ.

فبلال بن رباح مؤذن الإسلام -رضي الله عنه- كان أحد سادات طلائع الإيمان السابقين الأولين إلى ساحة الإسلام، وكان مملوكًا لامرأة من نساء بني جُمَح، رن في أذنه صوت الدعوة إلى الله ينادي به محمد بن عبد الله الصادق الأمين ﷺ:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (البقرة: ٢١)

وأُذُن بلال لاقطة صائدة، لم تكد تسمع هذا النداء الكريم حتى أرسلت به إلى قلب بلال وعقله وروحه، وتحسس مخرج الصوت ومنبعه، فعرفه، فدلف إليه وأسلم لله تعالى وجهه[٣١] وشهد شهادة الحق، ولازم النبي ﷺ ملازمة لم تمنعه من القيام بحق مَن كان يستعبده من الطغاة الظالمين. وعرف إيمانه، وشهر إسلامه، فكان يُعذَّب عذابًا لم يعذبه أحد من العالمين، كان يُصب عليه البلاء صبًا، وهو مطمئن القلب، مشرق الروح بإيمانه، يستعذب العذاب في سبيل الحفاظ بهذا الإيمان، ويستحلي أمر المر في سبيل الشح بدينه وعقيدته، يأخذه الفاسق أبو جهل فيبطحه على وجهه في الشمس، ويضع الرحى عليه حتى تصهره الشمس ويقول له: اكفر برب محمد، فيقول بلال: أحد، أحد.

وكان الكفور الفاجر أمية بن خلف يعذبه ويتابع عليه العذاب في صور وأشكال تذوب من فظاعتها وشدة هولها الجلاميد، وتتفتت من شراستها رواسي الجبال، وهو صابر محتسب نفسه عند الله فداء لدينه وعقيدته.

---

(٣١) دلف إلى كذا: مشى إليه في بطء. (المجلة)

الصدّيق يسرع في إنقاذ بلال من العذاب وتحريره من الرق:

وقد مر عليه النبي ﷺ وهو تحت وطأة العذاب، فقال ﷺ لأبي بكر: "لو كان عندنا شيء لاشترينا بلالًا" فلقي أبو بكر -رضي الله عنه- العباس بن عبد المطلب فقال له: اشترِ لي بلالًا، فانطلق العباس فقال لسيدة بلال: هل لك أن تبيعيني عبدك هذا قبل أن يفوتك خيره؟ فاشتراه منها، وبعثه إلى أبي بكر -رضي الله عنه- فأعتقه، وفي حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمّار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمّه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون وألبسوهم أدراع الحديد وأصهروهم في الشمس، فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالًا، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه فأعطوه الولدانَ والحبلُ في عنقه، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أحد، أحد.

بلال نموذج لرسوخ الإيمان وإشراق الروح:

فبلال -رضي الله عنه كان نموذجًا للمؤمن الذي رسخ الإيمان في قرارة نفسه، وامتلأ به قبله وعقله، واستحوذ على إحساساته ومشاعره، فلا يبالي ما يصنع به جبروت الفجور والطغيان، وكان تأوهه من شدة وطأة العذاب عليه (أحد، أحد) لا يستعفي مَن يعذبه ولا يسترحمه.

وظل بلال -رضي الله عنه- ملازمًا للنبي ﷺ بمكة حتى آذن

الله بكشف الغمة، وفتح أمام المعذَّبين في الأرض باب الهجرة إلى إخوانهم الأنصار، وهاجر بلال فيمن هاجر من السابقين الأولين، يخدم النبي ﷺ ليله ونهاره، ويسمع منه ويتبعه في مسيره حرسًا له يفديه بنفسه أن يناله أحد بسوء.

وجاءت غزوة بدر التي أعز الله بها الإسلام وجنده وأذل بنصرها الشرك وأهله، وتعبأ لها المشركون بالرجال والسلاح والمؤن والعدد والعدة، والتقى معهم المسلمون في جولة انتهت بخذلان المشركين خذلانًا قضى على شوكتهم وقصف قناتهم، فأخذهم المسلمون قتلًا لأشرافهم، وأسرًا لطواغيتهم، وتشريدًا لغوغائهم، وانجلت المعركة بالنصر المؤزر الذي عقده الله بناصية القلة المؤمنة التي تألفت كتيبة المجتمع المسلم الأولى منها.

بلال يرى أمية بن خلف يقوده عبد الرحمن بن عوف فيتذكر فجوره بمكة فيصرخ: يا أنصار الله:

ويلمح بلال -رضي الله عنه- طاغية الفجور، ورأس الكفر أمية بن خَلَف، يقوده عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه-، فتتواثب إلى رأس بلال، وتتراءى لعينيه صور العذاب الذي كان يصبه عليه هذا الفاجر الكفور، وعلى إخوانه المستضعفين من طلائع السابقين إلى الإسلام -رضي الله عنهم-، فلم يملك بلال نفسه أن صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر، أمية بن خَلَف، لا نجوت إن نجا، فهبَّ الفدائيون من بهاليل الأنصار مستجيبين إلى صرخة بلال -رضي الله عنه-، يحتوشون أمية وولده عليًا

بسيوفهم، ويحاول عبد الرحمن بن عوف أن يدفع عنه، وقد اتخذه وولده أسيرين، فلا يبالي أنصار الله بدفاع عبد الرحمن بن عوف، ومضوا في سبيلهم للقضاء عليه، فهبروه ليطهروا الأرض من رجسه[٣٢].

وتختلف الروايات في تصوير هذا الموقف الذي هيأت له المقادير أسباب ظهوره على أفق أول وأعظم غزوة في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ الجهاد لإعلاء كلمة الحق والعدل، ونشر لواء التوحيد خفاقًا في أرجاء الأرض، تلك هي غزوة بدر، التي طهَّر الله بها الأرض من دنس الفجور، وشراسة الوثنية المادية.

رواية البخاري في تصويره موقف بلال للقضاء على حياة الكفور الفاجر أمية بن خلف:

وأجل ما ثبت في ذلك رواية البخاري عن عبد الرحمن بن عوف، إذ يقول: كاتبت أمية بن خَلَف كتابًا - أي عقدت معه عقدًا - أن يحفظني في صاغيّتي بمكة[٣٣]، وأحفظه في صاغيته بالمدينة، فلما ذكرت (الرحمن) - أي في اسمه المسلم قال أمية: لا أعرف الرحمن، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته (عبد عمرو)، فلما كان في يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزه حين نام الناس، أي إن أمية لعنه الله بعد أن رأى الهزيمة النكراء تأخذ بحلاقيم قريش وتكتم أنفاسهم فرَّ هربًا إلى الجبل من مصيره المحتوم لو رآه أحد من جند الله، ولعل عبد الرحمن بن عوف

---

(٣٢) هبروه: قطَّعوه قطعا. (المجلة)

(٣٣) صاغية الرجل: خاصته وجلساؤه. (المجلة)

تذكـره وتذكر عقده معه، فخرج يبحث عنه، ليتخذه أسـيرًا وفاء بعقده، وهذا أهون الشـرين، ولكـن الله تعالى كان بالمرصاد لهذا الفاجـر وأضرابه من عتاولة الكفـر، فوجه إليه نظر بلال فأبصره، وتداعت إلى خاطره صور البلاء والعذاب التي كان يعذبه أمية بلالاً فـي مكة، فخرج بلال حتى وقف علـى مجلس من الأنصار، فقال: أميــة بن خَلَف، لا نجوت إن نجا أميــة، فخرج معه فريق من الذين سمعوه من الأنصار في آثارنا، فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم فقتلوه، ثم أبوا حتى يتبعونا، وكان -أي أمية- رجلًا ثقيـلًا، فلمـا أدركونا قلت له: ابرك، فبرك، فألقيت عليه نفسـي لأمنعه فتخلّلوه بالسيوف من تحتي حتى قتلوه.

رواية ابن إسحاق تفصل ما أجملته رواية البخاري:

وقـد ذكر ابن إسـحاق روايةً عن عبـد الرحمن بن عوف تتلاقى في كثير مما جاء في رواية البخاري، ولكن رواية ابن إسـحاق فيها زيـادات مفيدة آثرنا معهـا ذكرها لتكون مع روايـة البخاري صورة وافيــة للموقف الذي قضى فيـه على هذا الطاغيــة الرعديد، الذي أظهر من الجبن والهلع ما كشف عن طبيعته وهو يرى بلالاً -رضي الله عنه- هو الذي قضى عليه وعلى ابنه، بعد أن كان في مكة يتفنن فـي تعذيبه بما يصـب عليه من أفانيـن العذاب صبًـا ليكفر بدينه وعقيدته، ويترك عبادة ربه الواحد الأحد، ويعبد اللات والعزى.

قال ابن إسـحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عـن أبيــه، وحدثنيه أيضا عبـد الله بن أبي بكـر وغيرهما عن عبد الرحمن بن عوف قال: كان أمية بن خَلَف لي صديقا بمكة، وكان

اسمي (عبد عمرو) فتسميت حين أسلمت (عبد الرحمن) فكان يلقاني ونحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو، أرَغِبت عن اسم سماكه أبوك؟ فأقول: نعم. قال أمية: فإني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شـيئًا أدعوك به، أما أنت فلا تجيبني باسـمك الأول، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف، وكان إذا دعاني يا عبد عمرو لم أجبه، فقلـت: يا أبا علي اجعل ما شئت، قال: فأنت عبـد الإله، قلت: نعم، فكنت إذا مررت به قال: يا عبد الإله، فأجيبه، فأتحدث معه، حتـى إذا كان يوم بـدر مررت به وهو واقف مع ابنه علي، وهو آخذ بيـده، ومعـي أدرع قد استلبتها، فأنا أحملها، فلمـا رآني قال: يا عبـد عمرو فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله، فقلت: نعم. فقال: هل لـك فيَّ، فأنـا خير لك من هذه الأدرع التي معـك؟ قلت: نعم، ها الله فطرحـت الأدرع من يدي وأخـذت بيده، ويد ابنه، وهو يقول: مـا رأيت كاليوم قط، أمـا لكم حاجة في اللبن؟ يريـد هذا الفاجر الرعديد بكلمته هذه أن يقول بلسان الدناءة المادية التي لا تعرف إلا ملء البطن أن عنده من ذوات الألبان الحلائب ما يفدي به نفسه وابنه لو رغب أصحاب محمد ﷺ في ذلك، ولكنه لم يجد عندهم حاجة إلى التطلع إلى البطانة والتكرش، ولكنهم يستهدفون من وراء جهادهم إعلاء كلمة الله ونصرة الحق وإقامة منائر العدل بين الناس.

ثـم قال ابن إسـحاق: قال عبد الرحمن بن عـوف: قال أمية بن خلـف وأنا بينه وبين ابنه آخـذًا بأيديهما: يا عبد الإله، من الرجل منكـم المعلـم بريشـة نعامة فـي صـدره؟ فقلت: حمـزة بن عبد المطلب، قال: هذا الذي فعل بنا الأفاعيل.

قال عبد الرحمن بن عوف: فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال معي، وكان أمية هو الذي يعذب بلالًا بمكة على الإسلام، فلما رآه بلال قال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا. فقلت: أي بلال، أسيري، قال: لا نجوت إن نجا، ثم صرخ بأعلى صوته، يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل هذه المسكة، فأنا أذب عنه، فأخلف رَجُلٌ السيفَ فضرب به رِجلَ ابنه فوقع، فصاح أمية صيحةً ما سمعت بمثلها قط، فقلت: انج بنفسك ولا نجاء، فوالله ما أغني عنك شيئًا، فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما، وأصاب أحدهم رِجل عبد الرحمن بن عوف بسيفه، وكان عبد الرحمن يُري الناس ذلك الأثر في قدمه.

وكان عبد الرحمن بن عوف يقول: يرحم الله بلالًا، فجعني بأدرعي وبأسيري، وتقول روايات أصحاب المغازي والسير إن أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- هنَّأ بلالًا على قتله رأس الكفر أمية بن خلف بقوله:

هنيئًا زادك الرحمن فضلًا ... فقد أدركت ثأرك يا بلالُ

ولم يُعرف من طريق صحيح أن أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- كان يقول الشعر، ولعل سروره بما نال بلال من قتل مَن كان يعذبه، فانتقم الله له منه بتمكينه من قتله بيده ألقاه بعد أن سمعه من بعض مَن يقول الشعر، فنُسب إلى الصديق، وهذا في أشعار سيرة ابن إسحاق كثير، نبّه على بعضه مهذب سيرته عبد الملك بن هشام -رحمه الله تعالى-.

هذه الفريدة تمثل لونا من تطبيق منهج الرسالة:

هذه فريدة من فرائد (بدر) تمثل لونًا من الدروس التربوية التي وعاها أصحاب النبي ﷺ عنه وتلقوها منه، وهو ﷺ يسوسهم بمنهج الرسالة الخاتمة الخالدة، فكانوا بهذا المنهج كما وصفهم الله تعالى في قوله جل شأنه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: ٢٩)

هذا المنهج الذي ملأ قلوبهم بالإيمان والإيقان، وهو الذي كان دعامة نصرهم على أعدائهم، وهم أكثر منهم عددًا وأشد قوة، وأوفر عدة، ولكنهم كانوا أمام جند المجتمع المسلم أشباحًا خاوية؛ لأنهم يقاتلون لغير هدف، فكانوا حشودًا لا تحمل بين جنباتها شيئًا من الخير للمجتمع الإنساني، وإنما هي الأنانية والحرص على دناءات الدنيا، فهزمهم الله على أيدي القلة المؤمنة المستهدفة نصرة الحق وإقامة معالم العدل والمحبة والإخاء بين الناس، هزيمة أتت على أشرافهم قتلًا، وأسرًا وتشريدًا، وشفى الله بها صدور المستضعفين منهم، فأولاهم قتل أولئك الفجار من رءوس الكفر بأيديهم، فقتل عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- أبا جهل - لعنه الله وبوأه جهنم - وقتل بلالٌ -رضي الله عنه- أمية بن خلف، وجلله بالخزي والنكال، وحقق الله تعالى وعده للمجتمع المسلم في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ (التوبة: ١٤، ١٥).

الفهرس

● تَنزل النّصر مَع آيات السَّمَاء ٣
● حكمة الأمر بعدم القتال حتى يأذن رسول الله ﷺ ٣
● موقف مسالمة عتبة بن ربيعة أفسده أبو جهل بعناده وحقده ٤
– حمية الجاهلية تسوق عتبة وأخاه شيبة وولده الوليد إلى حتفهم في مبارزة أبطال بني هاشم ٥
– اختلاف الروايات في أقران المبارزة ٦
– بشائر المدد الإلهي وتنزل النصر ٨
– آية مكية يظهر تأويلها في غزوة بدر ٨
– توالي الآيات الغيبية وتحقق النصر ١١
– كانت هذه الآيات توطيدا للإيمان بدعائم الإمداد الإلهي ١٣
– تحقيق في آيات الإمداد بالملائكة ١٤
– موقف الصحابة من الغنائم والأنفال ١٥
– إخبار الله -تعالى- عن كراهية بعض الصحابة للخروج للقتال ١٧
– نقل المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية إلى مشاهد الآيات الغيبية ١٩
– تأثر المجتمع المسلم في مبدأ حياته برواسب الجاهلية ٢٠
– الوحدة الإيمانية في قوله جل شأنه ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴾ ٢١
– غزوة بدر نموذج كامل لتطبيق منهج الرسالة علمًا وعملًا ٢٥
– شهود الملائكة غزوة بدر ٣٦
نقل الرازي الإجماع على شهود الملائكة بدرًا ٤٣

● هل باشرت الملائكة القتال مع المؤمنين في بدر أو غيرها؟ ٥١
– مباشرة الملائكة القتال في بدر على سبيل الإعجاز رأي جمهور العلماء وظاهر القرآن وصريح السنة ٥١
– إنكار قتال الملائكة مع المؤمنين صرف لظواهر النصوص عن منازلها بغير موجب ٥٣
– رأي الطبري وتمسكه بحرفية النص القرآني ٥٨
– الاعتراض على الطبري في تعسفه وصرفه الخطاب في المؤمنين ٦٠
– رأي السبكي في قتال الملائكة بصور بشرية وهو من أحسن ما ينبغي أن يقال ٦١

فرائد بدرية

● الفريدة الأولى
– مشهد يمثل ذروة صدق الإيمان ٦٥
– عتبة يشعل نار الحرب ليرد على أبي جهل تعييره بالجبن ٦٦
– صدق الإيمان في فدائية عمير بن الحمام وشوقه إلى الجنة ورضوانها ٦٧
– بحث وتحقيق لبيان ما جاء في هذه القصة من معالم منهج الرسالة ٦٨
● الفريدة الثانية
﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ ٧١
– إذا ملك الإيمان قلب المؤمن أخلص لله وحده ٧٢
– إذا أحب الله عبدا غرس في قلبه حبه ٧٢
– كان حب عوف بن الحارث لربه حبا فدائيا ابتغاء مرضاته ٧٣

روي عن النبي ﷺ أنه قال:

(إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق).

مسند البزَّار

مطابع الأهرام التجارية

● الفريدة الثالثة

مقتل أبي جهل لعنه الله بسيوف ابني عفراء ٧٥

- شجاعة فدائية : إخوة بعضهم من بعض ٧٥

- حفاوة النبي ﷺ بالربيع بنت معوذ ٧٦

- قصة الربيع بنت معوذ مع بنت مخربة أم أبي جهل ٧٦

- خدعة أبي جهل أخاه لأمه عياش بن أبي ربيعة ٧٧

- تكريم النبي ﷺ للربيع بنت معوذ تكريم لأسرتها ٧٩

- فدائية ابني عفراء معاذ ومعوذ في حماية رسول الله ﷺ ٧٩

- غرائب لابن سعد في الطبقات انفرد بها ولم نرها لغيره ٨٩

- سرور رسول الله بقتل أبي جهل فرعون هذه الأمة ٩٤

- موقف أولياء الرحمن وفجور أولياء الشيطان ٩٦

- مفاخرة موقف أولياء الرحمن ٩٨

● الفريدة الرابعة

- بلال مؤذن الإسلام يقضي على حياة ثاني طواغيت الكفر أمية بن خلف ١٠١

- القصص القرآني يمثل نماذج من الأشخاص والأحداث غير مقيدة بزمان أو مكان أو جيل ١٠١

- الصدِّيق يسرع في إنقاذ بلال من العذاب وتحريره من الرق ١٠٣

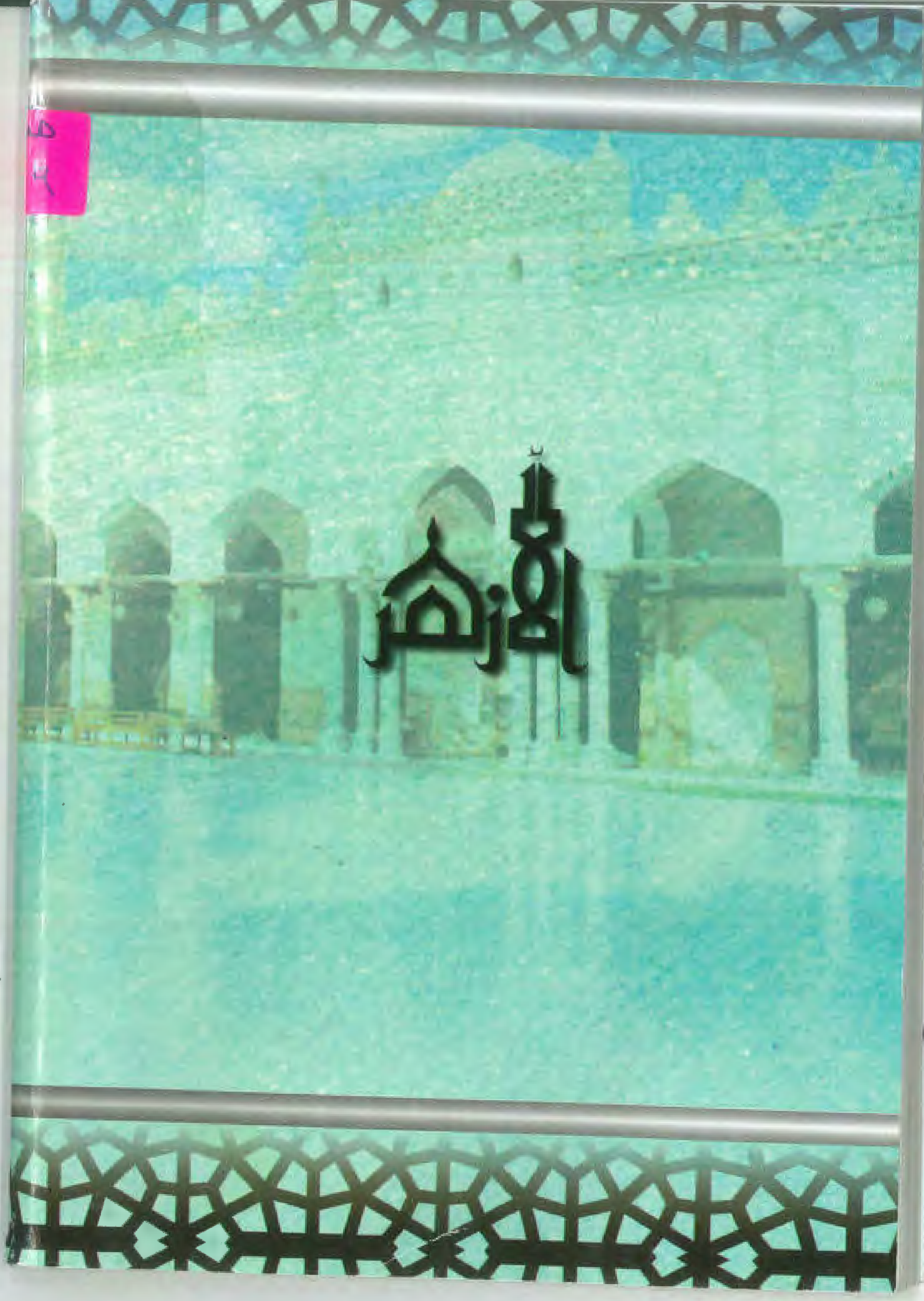
- بلال نموذج لرسوخ الإيمان وإشراق الروح ١٠٣

- بـلال يرى أمية بن خلف يقوده عبد الرحمن بن عوف فيتذكر فجوره بمكة فيصرخ: يا أنصار الله ١٠٤

- روايـة البخـاري في تصويره موقـف بلال للقضاء علـى حياة الكفور الفاجر أمية بن خلف ١٠٥

- رواية ابن إسحاق تفصل ما أجملته رواية البخاري ١٠٦

هذه الفريدة تمثل لونا من تطبيق منهج الرسالة ١٠٩


الأزهر